موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

أحاديث رمضان

أحاديث رمضان ١٤٢٨ هـ

قوانين القرآن الكريم

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٠١- ٢١) : مقدمة - قوانين لا بد من السير عليها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – الإنسان عقل وقلب:

أيها الإخوة الكرام، لأن الإنسان هو المخلوق الأول المكرم المكلف فقد أودع فيه قوة إدراكية. لذلك في الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، العقل يبحث عن الحقيقية، والقلب يشعر ويحب، البشرية من آدم إلى يوم القيامة لها إنتاج عقلي، وإنتاج شعوري، أفكار ومشاعر، هذا الإنتاج العقلي والشعوري يقسمه العلماء إلى أقسام ثلاثة، علمٌ، وفلسفة، وفن، فالعلم ما هو كائن، والفلسفة وما يجب أن يكون، والفن ما هو ممتع، فكل إنتاج البشر من آدم إلى يوم القيامة فلا يزيد على علم، وفلسفة، وفن.

٢ – الدين منتج ليس أرضياً:

لكن الدين منتج ليس أرضياً، ليس تراثاً، ليس من إنتاج البشر، الدين من الله، وحي من السماء، هناك فرق جوهري بين الوحيين الكتاب والسنة، والإنتاج العقلي والشعوري للبشرية.

٣ – ما هو العلمُ ؟

لكن نستعير بعض مصطلحات العلم، ما هو العلم ؟ قالوا: العلم هو الوصف المطابق للواقع مع الدليل، هذا تعريف مختصر، وهناك تعريف موسَّع، العلم علاقة ثابتة بين متغيرين، تطابق الواقع، وعليها دليل، ومقطوع بها، هذا هو القانون.

٤ – ما هو القانون ؟

القانون: علاقة ثابتة، بين متغيرين، تطابق الواقع، مطوع بها، عليها دليل ، فإن لم تطابق الواقع كانت الجهل، وإن لم يكن عليها الدليل كانت التقليل، إن لم يكن مقطوع بها كان الوهم، والشك، والظن، هذا تعليق القانون.

الآن معنا سؤال: هذا القرآن الكريم الذي بين أدينا، وهو من عند الله، يا ترى التعامل معه تعامل علمي أم غير علمي ؟

٥ – القوانين القرآنية ثابتة ومطردة والتعاملُ معها سهل:

هناك قوانين، وعلاقة ثابتة بين شيئين، فإن كان في القرآن قوانين ثابتة فالتعامل معها سهل جداً، الآن الحضارة البشرية كلها قائمة على قوانين، علاقات ثابتة، مطردة وشاملة.

في سلسلة هذه الدروس سوف ـ بفضل الله عز وجل وبتوفيقه ـ نتناول هذه القوانين في القرآن الكريم، التعامل مع القرآن بقوانينه شيء مريح جداً، لكن المسلمين اليوم لا يتعاملون مع القرآن كقوانين، يتعاملون معه ككتاب مقدس، فيتمنّون، وليس التعامل مع القرآن بأماني الإنسان، بل بتطبيقه للقوانين.

أيها الإخوة، الأمر يحتاج إلى أمثلة: لو أن التعامل مع القرآن تعامل غير تعامل علمي فالمشكلة كبيرة جداً.

للتوضيح: أحياناً تكون موظفًا بمؤسسة، وفيها نظام دقيق، ووسائل للترقية، ووسائل زيادة الراتب، وعقوبات، ولكل إنسان صفحة، فالتعامل العلمي مع مدير المؤسسة، أو مع أنظمة المؤسسة مريح جداً، أما إذا كان التعامل مزاجيًا فذلك شيء متعب جداً.

أنا أطمئنكم أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب)

(سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)

(سورة الإسراء)

في القرآن قوانين ثابتة لا تتغير، ولا تتبدل، ولا تجمد، ولا تعطل، ولا تعدل ولا يضاف عليها، ولا يحذف منها.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ به

المسلمون في أيام تخلفهم لم يتعاملوا مع هذه القوانين، تعاملوا مع القرآن ككتاب مقدس، وتمنوا على الله الأماني، وقد قال الله عز وجل:

(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ) ـ دقق ـ (مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ به)

(سورة النساء الآية: ١٢٣)

نحن في اللغة عندنا ترتيب شرطي، فعلان مع أداة شرط، كقولك: من يجتهد ينجح، فمن: اسم شرط جازم، له فعل شرط، وله جواب شرط، وجواب الشرط لا يقع إلا إذا وقع الشرط، هذا قانون. فأحياناً تأخذ القوانين عبارة شرطية، (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ـ دقق ـ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ به)

هذا قانون، فالذي يتوهم أنه يمكن أن يعمل سوءاً من دون أن يجزى به فهو واهم، وهو جاهل، وقد تعامل مع القرآن تعاملا ضبابيا، تعاملاً غير علمي.

فالمسلمون ما لم يعرفوا هذه القوانين، وما لم يقدموا المقدمات، حتى يأخذوا النتائج، أما بلا مقدمات فلن يأخذوا النتائج.

طبعاً هذا الدرس الأول درس تمهيدي وتعريفي بهذه السلسلة من الدروس التي سوف نتابعها إن شاء الله.

من قوانين القرآن المطّردة:

١ ـ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ

مثلاً: أحد هذه القوانين:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: ١١)

مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يخرج المسلمون من محنتهم، ومن تكالب الأمم عليهم، ومن قهرهم، ومن إفقارهم، ومن إضلالهم، ومن إفسادهم، إلا إذا غيروا ، فإن لم يغيروا فإن الله لا يغير ما بهم، وأي شيء يفعلونه من أجل أن ينتظروا تغييراً، أو معجزة، أو نصراً بلا ثمن فهم واهمون، وغافلون.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أنا أتمنى عليكم أن تتبعوا هذه القوانين، نحن اخترنا لكم في هذا الشهر ثلاثين قانونًا من قوانين القرآن الكريم، تماماً كقوانين الفيزياء، المعادن تتمدد بالحرارة، فإن لم تدع فاصل تمدد بناء سوف يتصدع.

فهذا القانون ثابت، لا يتغير، لا يعطل، لا يبدل، لا يعدل، لا يضاف عليه، لا يحذف منه، لا يجمد، فإن لم تعبأ به، وإن لم تهتم به واقع بك لا محال.

عندنا في الفيزياء قانون السقوط، إذا ألقى الإنسان بنفسه من الطائرة فهو كتلة، هذه الكتلة في سقوطها لها قانون، فيها تسارع بدافع الثقل، وبدافع الجاذبية، فإذا ألقى الإنسان بنفسه من الطائرة من دون مظلة فبحسب قانون السقوط هناك تسارع شديد يجعله إذا وصل إلى الأرض يفارق الحياة، وإذا صدّق هذا الإنسان هذه القانون أو لم يصدّقه فالقانون واقع به، وإذا عبأ به أم لم يعبأ به فهو نافذ فيه.

لذلك التعامل مع كتاب الله تعاملا علميا مريح جداً، هذا قانون:

(إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

٢ – وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

في أي زمان، في أي مكان، في أي عصر، في أي مصر، في أي ظرف صعب، في دول فقيرة أو غنية، في دول ذات ثروات طائلة أو بلا ثروات، في وضع صعب أو وضع سهل، (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا) هذا قانون، وأي واحد منكم، وأنا معكم، فمَن اتقى الله في أي مجال رأى الفرج رأى اليسر، ورأى التوفيق، ورأى النصر، ورأى التأييد.

البطولة أن تكتشف قوانين هذا الكتاب، والبطولة أن تأخذها كما تأخذ قوانين الفيزياء، هناك مقدمة. هناك نتيجة، هناك فعل شرط، هناك جواب شرط، لا يأتي جواب الشرط إلا إذا وقع فعل الشرط.

٣ – قانون العداوة والبغضاء:

أيها الإخوة، مثلاً: قانون العداوة والبغضاء:

(فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية: ١٣)

أيّ مشكلة، أيّ عداوة، أيّ بغضاء، أيّ خلاف، أيّ حقد، أيّ شرخ بين إنسانين، بين أسرتين، تفسير هذا الشرخ، وهذه العداوة أنهما أو بعضهما تفلتا من منهج الله.

(فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

٤ ـ قانون الحياة الطيبة:

مثلاً: الحياة الطيبة حياة الأمن، حياة الراحة، حياة السكينة، حياة الاستقرار، حياة التفاؤل، حياة السعادة، حياة السلامة، هذه حياة طيبة، الكلمة الطيبة تجمع كل هذه الصفات، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: ٩٧)

والله أيها الإخوة، لزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فتعاملْ مع كتاب الله على أنه قوانين، وإذا قرأت كتاب الله حاول أن تكتشف هذه القوانين، هي قوانين كثيرة جداً، اخترت لكم بفضل الله وتوفيقه ثلاثين قانوناً، في كل درس نأخذ قانونا أو أكثر، أشرح لكم هذه القوانين بتوفيق الله إن شاء الله.

٥ـ قانون الحياة الضنك:

مثلاً: الحياة الصعبة، الضيق، الألم ن الإحباط، اليأس، التشاؤم، الضجر، هذا قد يوصل للانتحار.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

أعطيكم نماذج من هذه القوانين، ومستحيل وألف ألفِ ألف مستحيل أن يكون الإنسان معرضا عن الله عز وجل ويحيى حياة طيبة، هذا قانون، فأنت اقرأ القرآن، الله عز وجل أرادنا أن نتعامل مع كتابه تعاملاً علمياً، قال لك:

(وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

(وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)

فحينما نقرأ هذه الآيات، واستخرجناها وكتبناها على دفتر، وتلوناها كثيراً، وتعاملنا معها كقوانين نفلح.

في أيّ بلد، وأي عصر، وأي مصر، بأي سن، بأي وضع، في مدينة، في قرية، أنت ابن إنسان غني، ابن إنسان فقير فالأمر سواء.

من لوازم القوانين القرآنية الإيمانُ بأن الأمر بيد الله:

الأمر بيد الله ، و من لوازم هذه القوانين أن تؤمن أن الأمر بيد الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية:٨٤)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية: ٢)

أيها الإخوة، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك.

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية: ١٧)

حينما ترى أن يد الله تعمل وحدها، وأن الأمر كل بيد الله، وأنه لا معطى إلا الله ، ولا مانع إلا الله، ولا رافع إلا الله، ولا خافض إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله تتجه إليه وحده، وحينما تؤمن أنه مستحيل وألف ألفِ ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، وأنه مستحيل وألف ألفِ ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، وأنه:

((من أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله ولم يؤتيه من الدنيا إلا ما قدر له))

(أخرجه ابن ماجة عن الترمذي]

حينما تقرأ هذا الأثر القدسي.

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

اقرأ هذه القوانين إنْ في كتاب الله، وإنْ في سنة رسول الله، وتعامل معها، لكن ما الذي يحصل ؟

من لوازم القوانين القرآنية الإيمانُ بأن الأمر بيد الله:

إن الإنسان الذي لا يقرأ هذه القوانين، ولا يعبأ بها، ويقول: يا رب عليك بهم، فإنهم لا يعجزونك، يا رب دمرهم، يا رب اجهل تدميرهم في تدبيرهم، يا رب اجعل الدائرة تدور عليهم، وهم يزدادون قوة، قد تقول أحيانا: الله عز وجل لا يستجيب لهذا الإنسان.

مثلاً: وضعت الدولة كلية الطب لتخريج الطلاب أطباء، كلية الطب تحتاج إلى علامات معينة، مثلاً ٢٣٥، في سبع سنوات سنة تُدّرَّس علوم عامة، سنة تشريح وصفي، سنة فيزيولوجيا وظائف

الأعضاء، سنة علم الأمراض، سنة علم الأدوية، وسنة تطبيقية، هذا الطريق الوحيد كي تكون طبيبا، لكن أحدهم جاء وما أعجبه هذا الترتيب، لا معه شهادة ثانوية، ولا علامات، ولا معه كفاءة، لكن له رغبة أن يقرأ بعض المجلات الطبية ويقول: يا رب اجعلني طبيبا، مهما دعوت فلن يسمح لك أن تكون طبيبا، لأن هناك طريقا إن لم تسلكه فلن تنال الذي تريده.

من لوازم القوانين القرآنية الطاعة وعدم المعصية:

تعامل مع الله بهذه الطريقة، المسلمون يقيمون على معاصيهم، وتقصيرهم، يأكلون المال الحرام، يكذبون، يغشون، يفعلون كل الموبقات، فإذا جاؤوا إلى المسجد قالوا: يا رب انصرنا على أعدائنا، يا رب أنت الناصر، الدعاء يحتاج إلى مقدمات، لئلا نقع في الإحباط، لئلا نتوهم أن الله تخلى عنا، لئلا نتوهم أن الله لا يستجيب لها، لا بد من أن نأخذ بهذه القوانين، لا بد من أن نهتم بها، لا بد من أن نتأدب معها، حتى نقطف ثمارها، هذا كلام دقيق، وأسأل الله جل جلاله أن يلهمنا الصواب، وأن نقرأ كتاب الله بهذه الطريقة.

خاتمة:

رجل من علماء المسلمين التقى بأحد خلفاء بني أمية، قال له: ادعُ لي، صدقوا أنه ما ألتقي بإنسان إلا ويقول لي: ادعُ لي، أنا والله أدعو له، وأتأدب معه، لكن في أعماق نفسي أقول: لو أنه استقام على أمر الله لا يحتاج إلى دعائي، فهذا الخليفة قال لهذا العالم: ادعُ لي، فقال له: " لا تظلم، وأنت لست محتاجاً إلى دعائي ".

أقول لكم كلاما دقيقا: المسلمون الآن يرغبون بعلاقات غير صحيحة، كأن يقول لك أحدهم: ادع لي بأن تتزوج ابنتي، ابنتك سافرة، ادع ليصلي، وهو ما نشأ على الصلاة، وما علمته الصلاة، وما اعتنيت به.

هناك قوانين، نريد كلمة تقولها، أو دعاء تقوله تحل كل مشاكلك، هذا فهم أسطوري للدين، هذه أساطير، الدين علم، فما لم تقدم المقدمات فلن تقطف النتائج.

وإن شاء الله تعالى نتابع هذا في دروس قادمة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٠٢- ٢١) : سنة الأمن - ينشأ الأمن من استقامة الإنسان ، وينشأ الخوف من تفلت الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ نعمة الأمن والشبع:

بادئ ذي بدء: إن أعظم نعمتين يمتن الله بهما على الإنسان هي نعمة الشبع ونعمة الأمن، الدليل قال تعالى:

(أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

٢ ـ الخوف والجوع عقاب من الله:

وأكبر عقاب يعاقب الله به من شردوا عنه الخوف والجوع، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

٣ ـ لماذا يخاف الإنسان ؟

لكن قد يسأل سائل: لماذا يخاف الإنسان ؟ الجواب: الخوف مودع في جبلته الدليل:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

هذا أصل في خلقه، وهو لصالحه.

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

والهلوع صيغة مبالغة، شديد الخوف .

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

٤ – الاتصال بالله مانع من الخوف:

أول طريق لتجاوز الخوف، والشفاء منه أن تتصل بالقوي، أن تتصل بالغني أن تتصل بالحق، أن تتصل بالعدل.

فلذلك الآية الكريمة:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

ولكن:

((ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي ـ تفكر في خلق السماوات والأرض ـ وكف شهواته عن محارمي ـ استقام على أمري ـ ولم يصر على معصيتي ـ كان كثير التوبة ـ وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب وآوى الغريب ـ له عمل صالح بإخلاص ـ كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلما، والظلمة نورا، يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها، ولا يتغير حالها))

[رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

إذاً:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعً ا)

شديد الخوف، يخاف على صحته، يخاف على رزقه، يخاف على مستقبله، يخاف على مركزه، يخاف على مكانته، يخاف على سمعته، شديد الخوف:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

٥ – مَن هم المصلُّون ؟

ولابد من أن أنوه أنه كما قلت قيل قليل في الأثر القدسي:

((ليس كل مصل يصلي))

إذاً من هم المصلون ؟ الذين يتجاوزن الخوف، قال:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ)

(سورة المعارج)

وضحت هذا مرات عديدة: الصِّفة قيد، فإذا قلت: إنسان، فهذه الكلمة تغطي ستة آلاف مليون، أما إذا قلت: إنسان مسلم، فهذه تغطي مليارا ونصف مليار، ضاقت الدائرة، أما إذا قلت: إنسان مسلم عربي، ٤٠٠ ألف، أما إذا قلت: إنسان مسلم عربي مثقف فأقلُّ، فكلما أضفت صفة ضاقت الدائرة، كطبيب قلب جراح، مقيم بدمشق، تضيق الدوائر.

قياساً على هذه الدوائر، قياساً على هذه القاعدة:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

كل واحد في العالم الإسلامي صلى مشمول بهذه الكلمة:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) ضاقت، (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ)

((ليس كل مصل يصلي))

٦ – الخوف والهلع لصالح الإنسان:

أول حقيقة في هذا اللقاء الطيب أن الخوف من أشد المشاعر التي ترضّ الإنسان، لأن الخوف مودع في جبلته، ولكن لصالحه، كيف ؟

آلة غالية جداً، عظيمة جداً، معقدة جداً، نفعها كبير، فيها وصلة ضعيفة، فإذا جاء التيار قوياً لئلا تحترق في هذه الوصلة تسيح وينقطع التيار، وتسلم الآلة.

من يتمتّع بالأمن ؟ المؤمن الموحِّد:

أيها الإخوة، الله عز وجل يؤكد في القرآن الكريك أن إنساناً واحداً من بني البشر يتمتع بنعمة الأمن، قرآن، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

جاء الجواب:

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

إذاً: صدقوا كلام خالق السماوات والأرض، أن الأمن لا يتمتع به إلا المؤمن.

لذلك قالوا: أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض ، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ)

معنى ذلك المؤمن المتصل بالله عز وجل لا يخاف، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا)

من المستقبل.

(وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية: ٣٠)

على الماضي.

هل هناك أورع من هذا الفهم لهذه الآية، غطى لك الله المستقبل والماضي، فلا تحزن.

سيدنا أبو بكر الصديق معروف أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط إطلاقاً.

(أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)،

طمأنك الله.

قال تعالى:

(قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا)

(سورة التوبة الآية: ١٥)

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ)

(سورة البقرة الآية: ٢٥٧)

أيها الإخوة الكرام، الحقيقة الأولى: أن أعظم نعمتين يمتن الله بهما على الإنسان نعمة الأمن والكفاية.

قال لي أحدهم، وقد سألته عن أحواله، قال لي: الحمد لله، كيف رزقك ؟ قال: كفاف، قلت له: إذاً: أصابتك دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، فتعجب ! هو دعا عليّ ؟! قلت: لا، قال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

الكفاف ليس معناه الفقر، بل الكفاية .

((خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هَمّا))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((فإنه من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

ما هو قانون الخوف ؟

١ – الشرك سبب الخوف:

بالمقابل ما هو قانون الخوف ؟ الله عز وجل يقول، والآية محكمة:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ)

(سورة آل عمران الراية: ١٥١)

معنى ذلك أن التوحيد معناه الأمن، وأن الشرك معناه الخوف، فعندنا قوانين ، الإنسان المشرك مهما يكن قوياً فقلبه خائف، والإنسان المؤمن مهما يكن ضعيفاً فقلبه مطمئن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

إخواننا الكرام، هناك سبب يشرحه الأطباء في بعض مؤتمراتهم ؛ أن الصحة الجيدة التي كان يتمتع بها آباءنا وأجدادنا ما تفسيرها ؟

الأطباء قالوا: تفسيرها: أن في حياة الآباء والأجداد جهدا عضليا كبيرا، وهذا أحد أركان الصحة، وعندهم راحة نفسية، وهذا أحد أركان الصحة، جهد عضلي، وراحة نفسية، الآن لماذا ارتفعت نسب الأمراض ؟ في الماضي كلمة جلطة تصيب الإنسان في سن٨٠، ٧٠، ٦٠، الآن جلة في سن ١٨ ويموت، في سن ٣٨ ، في سن ٢٠، الشدة النفسية وراء معظم الأمراض، والخوف.

٢ – الشدة النفسية سببها ضعفُ التوحيد:

لذلك جهاز المناعة المكتسب هذا الجهاز العظيم الذي أكرمنا الله به، والذي يتولى مكافحة أمراض الجرثومية والإنتانية والسرطانية، هذا الجهاز يقويه الأمن، يقويه الحب ويضعفه الخوف والقلق.

٣ ـ قد يقتل الخوفُ صاحبَه:

لذلك آية كريمة أشارت إلى أن الخوف يمكن أن يكون قاتلاً، والدليل:

(مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١١٩)

إخوتي الكرام، الشدة النفسية الآن في أعلى درجة بسبب الشرك.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

لا يرى أن الله المتصرف وحده في الكون، يرى زيدا، وعبيدا، وفلانا، وعلانا يرى الأقوياء يفعلون ما يقولون، ليس عندهم مشاعر، ولا مبادئ، ولا قيم، هو ضعيف ن والله هذه الأفكار وحدها تسحق الإنسان، لكن الله سبحانه وتعالى طمأنك، وقال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

والله أيها الإخوة، لو سألتم مئات الأطباء عن الأمراض التي يسببها الخوف والقلق، والشدة النفسية لحدثوكم عن أمراض لا تعد ولا تحصى، كالخوف والشدة النفسية، والخوف من الشرك، والله عز وجل قال:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء الآية: ٢١٣)

جهاز المناعة المكتسب:

١ ـ تركيبة جهاز المناعة المكتسب:

لذلك هذا الجهاز جهاز المناعة المكتسب هو في الحقيقة جيش بكل معاني هذه الكلمة، فيه فرقة اسمها فرقة الاستطلاع، الجيش هو الكريات البيضاء، هذه الكريات خمس فرق، فرقة الاستطلاع مهمتها استخباراتية، إذا دخل إلى الجسم جرثوم تتجه إليه، وتأخذ شفرته الكيماوية، وتنقل هذه الشفرة إلى معامل الأسلحة، إلى العقد اللمفاوية حيث يتم فيها تصنيع المصل المضاد للجرثوم، وتنهي مهمة الفرقة الأولى، أخذ الشفرة، وسلمها إلى معامل الدفاع، معامل السلاح، معمل اللقاح، معامل المصول، هذه المراكز اللمفاوية مهمتها تصنيع مصل مضاد لهذا الجرثوم، لكن أروع ما في هذه الفرقة أنها تملك ذاكرة مذهلة، لو أن هذا الجرثوم دخل إلى الجسم، والجسم صنع مصلا مضادا

له، وشفي الإنسان فهناك ملف لهذا الجرثوم، لو عاد بعد سبعين سنة فالملف جاهز، ولولا هذه الذاكرة في فرقة تصنيع الموصول لما كان للقاحات من معنى إطلاقاً.

الآن الفرقة الثالثة فرقة المقاتلين تذهب إلى مراكز تصنيع المصول، ويحملون هذه المصول، وهي الأسلحة، ويتجهون إلى الجرثومة، وتجري معركة بينهم.

أحيانا يجد الإنسان ورما خفيفا في حسمه، وعليه بياض يكون مادة قيحية، هنا تمت المعركة، تجري معركة حادة حامية الوطيس بين الكريات المقاتلة التي تحمل المصل المضاد وبين الجراثيم، حين تنتهي المعركة، يكون هناك قتلى، و جرحى، و تدمير.

تأتي فرقة رابعة، وتنظف أرض المعركة، وتزيل آثار العدوان.

بقيت فرقة خامسة اكتشفت مؤخراً سماها العلماء فرقة المغاوير، والاسم الأصلي لها الكومندوس، هذه الفرقة تستطيع أن تكتشف الخلية السرطانية في وقت مبكر، وتلتهما.

٢ – أثر الصحة النفسية في عمل جهاز المناعة سلبًا وإيجابا:

إذاً: جهاز المناعة المكتسب يقوى بالحب، ويقوى بالأمن، والأمن أساسه التوحيد، والتوحيد بالمختصر المفيد لا إله إلا الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

التوحيد دائرة من عشر طوابق، في كل طابق مئة موظف، لكن معاملتك لا يمكن أن يوافق عليها إلا المدير العام، لذلك مستحيل أن تبذل ماء وجهك لموظف.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

إخوتي الكرام، الشعور بالأمن لا يقدر بثمن، المؤمن يمتلئ قلبه أمناً واستقراراً، وثقة بالله عز وجل، أما غير المؤمن فيكون معه ملايين مملينة وهو خائف ، وقد يكون قويا، وهو خائف، الدليل:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

(سورة آل عمران الآية: ١٥١)

لذلك:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

بالمناسبة: مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يسلمك الله إلى غيره، إن أسلمك إلى غيره كيف يقول لك: يا عبدي اعبدني ؟ يا رب أمري بيد فلان، أريد أن أتقي سخطه، يقول لك: لا،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

هذا هو التوحيد:

إخوتي الكرام، الإيمان هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وما لم توحد فلست مؤمناً، إن قلت: أنا مؤمن بالله، فإبليس آمن بالله، قال رب:

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سور ص الآية: ٨٢)

وإبليس قال:

(أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

وقال:

(خَلَقْتَنِي)

(سورة الأعراف الآية: ١٢)

آمن بالله خالقاً، حتى عباد الأوثان يقولون:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر الآية: ٣)

التوحيد يعني الأمن، التوحيد يعني الصلاة، التوحيد يعني الاستقامة،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

خاتمة:

أيها الإخوة الكرام، القلق والخوف كأنها سيوف مسلطة على الإنسان، لذلك ضعيف التوحيد ينافق، خوفاً على مكانته، خوفاً على منصبه، خوفاً على رزقه، خوفاً على ميزاته التي نالها من القوي، ضعيف التوحيد ينافق، ضعيف التوحيد ينهار، ضعيف التوحيد يرائي، المؤمن لا ينافق، ولا يرائي، ولا يخاف.

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة الآية: ٢٥٧)

أيها الإخوة الكرام:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة فصلت)

إذا كان خالق السماوات والأرض هو وليك فهل يمكن أن ينالك أحد ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟

أيها الإخوة:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

لا تشعر بمعنى الإيمان، ولا معنى الأمن، ولا معنى الطمأنينة، ولا معنى الاستلام لله عز وجل إلا بالتوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

والبشر نموذجان: موحد آمن، ومشرك خائف، هذا ينطبق على الأفراد والشعوب، على الدول، على طفل، الإنسان المستقيم آمن.

سيدنا عمر مر في المدينة بأطفال لما رأوه هربوا، إلا واحد، قال له: يا غلام لمَ لم تهرب مع من هرب، قال: أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني، يسعك.

صدقوا أيها الإخوة، لو لم يكن من ثمار الصلاة والإيمان إلا الأمن لكفى، لأن الخوف يملئ قلوب الناس، يدفعهم إلى الكذب، إلى الدجل، إلى الرياء، إلى النفاق، يدفعهم إلى العقد النفسية، يدفعهم إلى ضعف شخصياتهم.

فيا أيها الإخوة، السنة الثانية في هذه الدروس إن شاء الله هي سنة الأمن، والأصل في هذا الموضوع:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٠٣- ٢١) : العداوة والبغضاء بين المسلمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – انتشار العداوة والبغضاء بين الناس:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في خلقه، والموضوع اليوم موضوع العداوة والبغضاء، وما أكثرها بين بني البشر، بل انتهت إلى سفك الدماء ، هذا الموضوع ما قوانينه في القرآن الكريم ؟

٢ – الإنسان والأمانة:

بادئ ذي بدء: الإنسان مخلوق متميز عرض الله عليه حمل الأمانة.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: ٧٢)

٣ – صفات الأمين وصفات الخائن اللعين:

فالذي أدى الأمانة كما ينبغي له صفات، والذي خان الأمانة له صفات، هذه الصفات بين الفريقين متناقضة، أنت تحب بقدر نقاط الالتقاء بينك وبين الآخر، وأنت تبغض بقدر نقاط الخلاف بين وبين الآخر، هذا الأصل العلمي.

لذلك حينما تجلس مع إنسان تتفق معه في المبادئ، والقيم، والأخلاق، والسجايا والصفات، والسمات، والخصائص، والمواقف، تجد في نفسك ميلاً نحوه عجيباً، وحينما تجلس مع إنسان يختلف عنك بالمبادئ، والقيم، والصفات، والمنطلقات، والمبادئ، وما إلى ذلك تحس النفور منه.

٤ – الناس مؤمن أو كافر:

النقطة الدقيقة أيها الإخوة، أن الله عز وجل وضح في بعض الآيات أن البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، ومذاهبهم وتياراتهم، وشرائحهم، وأطيافهم، هم عند الله نموذجان، مؤمن وكافر.

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)
(وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

الذي آمن انضبط بمنهج الله، وأحسن إلى خلقه، فسلم، وسعد في الدنيا والآخرة، والذي لم يؤمن لم ينضبط بمنهج الله، استغنى عن طاعة الله، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة.

لذلك شيء طبيعي جداً بحسب أن الإنسان قبل حمل الأمانة، وبعض البشر أدوا الأمانة، وبعض البشر خانوا الأمانة.

فلذلك شيء طبيعي أن ينقسم البشر إلى فريقين، لا ثالث لهما، وهذا معنى قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)
(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

الفريق الأول أيقن أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، والفريق الآخر كذب أنه مخلوق للجنة، وآمن في الدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، والله عز وجل قال:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

٥ ـ الحكمة الإلهية مقتضية لعيش الفريقين المتناقضين على الأرض

الآن عندنا فريقان متناقضان في الصفات، والمبادئ، والأهداف، والقيم، حتى والمواقف، فشيء طبيعي أن يكون بينهما خلاف، لكن كان من الممكن أن يكون الفريق الأول في كوكب، والفريق الآخر في كوكب، إذاً: لا خلاف، ولا خصومة، ولا عداوة، ولا بغضاء، ولا مساجلة، ولا ملاسنة، ولا قتال، ولا سفك دماء، وقرار الله عز وجل حكمة كله، وعدل كله، ورحمة كله، ومصلحة كله، أراد الله أن نكون معاً، شيء طبيعي جداً أن تكون هناك معركة بين الحق والباطل، أزلية أبدية، ويكون اختلاف في وجهات النظر، وقد يصل إلى سفك الدماء كما ترون في العالم.

٦ ـ معنى: كافر:

ما معنى كافر ؟ مرة كنت في أستراليا، ألقيت كلمة في كنيسة بدعوة منهم، في ملتقى للخطاب الديني، فلما كنت هناك دعيت إلى إلقاء كلمة، بعد انتهاء كلمتي ظهر سؤال، وقالوا: إنهم متحسسون

جداً من كلمة كفر، قلت: القضية سهلة جداً، قلت لهم: أنا كافر ببعض ما عندكم ، وأنتم كفار بكل ما عندنا، أنت لا تصدقون ما عندنا، ونحن لا نصدق بعض ما عندكم، التأكيد على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ، مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ))

[متفق عليه]

فالمؤمن وصف بأنه كافر، لأنه لم يقبل فكرة تتناقض مع قرآنه، والكافر وصف بأنه مؤمن بالكواكب لا بالله عز وجل، شيء طبيعي جداً أن ينقسم البشر إلى قسمين، مؤمن بالجنة يتقي أن يعصي الله، يبني حياته على العطاء، الله عز وجل يوفقه لهذه الأهداف النبيلة، وإنسان آخر لم يؤمن بالجنة آمن بالدنيا، شيء طبيعي جداً أن يستغني عن طاعة الله، وبعد أن استغنى عن طاعة الله بنى حياته على الأخذ.

٧ ـ صنفان في القمة: الأنبياء والأقوياء:

وكنت أقول دائماً: هناك دهماء وسوقة بشر يشكلون البنية التحتية، وهناك قادة ونجوم يقعون على رأس الهرم البشري، وكنت أقول دائماً: يقع على رأس الهرم البشري زمرتان: الأقوياء والأنبياء، الأقوياء يمثلون القوة والدنيا، والأنبياء يمثلون القيم والآخرة، الأقوياء ملكوا الرقاب، والأنبياء ملكوا القلوب، وشتان بين أن تملك رقبة الإنسان وبين أن تملك قلبه، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء عاش الناس لهم، الأنبياء عاشوا للناس، والناس جميعاً تبع لقوي أو نبي، لهذا أحب الناس الأنبياء وخافوا من الأقوياء.

وكنت أقول دائماً: وبطولة الأقوياء أن يتخلقوا بأخلاق الأنبياء، حتى يحبهم الناس.

٨ ـ الحق لا ينمو إلا بالتحدي:

إذاً: العداوة والبغضاء شيء أساسي، لأن الله عز وجل أراد أن نجتمع معاً، وأن نكون معاً، لأن الحق لا ينمو إلا بالتحدي ـ دققوا ـ الحق لا ينمو إلا بالتحدي، وصدقوا، ولا أبالغ أن هذه الصحوة الإسلامية يعود الفضل فيها إلى أعداء الدين، من دون أن يشعروا ، ومن دون أن يريدوا، ومن دون أن يؤجروا، لأنه ظهرت منهم قسوة ما بعدها قسوة، وازدواجية في المعايير ما بعدها ازدواجية، ولؤم ما بعده لؤم، وابتزاز للأموال، وانتهاك للأعراض، فشيء طبيعي جداً أن الباطل حينما يتحرك بقوة يدفع الناس إلى الحق.

لذلك قالوا: في كل شيء بذور نقيضه، لَم كان الكافر قويًا، وبيده كل شيء، وظهر من اللؤم والقسوة، وسفك الدماء، وابتزاز الأموال، والمعايير المزدوجة، فجعل الناس يميلون إلى الحق، وإلى

الإيمان بالله، فالحق لا ينمو إلا بالتحدي، وأهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية، فهذا قدرنا، قدرنا أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، لأن الإنسان مخير، ولأن الله عز وجل عرض عليه حمل الأمانة في عالم الأزل، ولأن بعض البشر خانوا الأمانة، ولأن بعضهم أدوا الأمانة، فالذي أداها ينطلق من مبادئ، ومن قيم، ومن صفات، و من أخلاق، والذي لم يؤدّ الأمانة، بل خان الأمانة، ينطلق من تكذيب وكفر ولؤم، وابتزاز مال، وانتهاك أعراض، فشيء طبيعي أن هناك نقاط لقاء هي سبب المحبة والود، ونقاط خلاف هي سبب العداوة والبغضاء.

وبشكل واضح وقريب: لك صديق يؤمن بما تؤمن، يحب ما تحب، يخجل مثلك، رحيم، لطيف، متواضع، تجلس معه ساعات طويلة، ولا تشعر بالوقت، تجلس مع إنسان يتناقض معك في الأفكار، في المبادئ، في القيم، وقح، سفيه، بذيء اللسان ، وصولي، أناني، حقير، لا تستطيع أن تقعد معه دقيقة، لعدم القواسم المشتركة.

قانون العداوة والبغضاء:

١ ـ معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية:

التفسير الأول للعداوة والبغضاء: أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، وأن الإنسان مخير، وأنه حينما اختار حمل الأمانة انطلق من مبادئ، وقيم، وصفات وسمات، وخصائص، ومواقف، تتناقض مع الذي كذب بالآخرة، وآمن بالدنيا، وتفلت من منهج الله، وسعى إلى إيذاء الناس، وبناء مجده على أنقاضهم، وأمنه على خوفهم، وغناه على فقرهم، وعزه على ذلهم، فشيء طبيعي جداً، ونحن معاً في أنحاء الأرض فيها مؤمن وغير مؤمن، مؤمن يخاف الله، غير مؤمن لا يخاف الله، مؤمن يحب أن يعطي، غير المؤمن يحب أن يأخذ، وهكذا.

٢ ـ آية قرآنية أصلٌ في موضوع العداوة والبغضاء:

أيها الإخوة، الآن تأتي آية هي الأصل في هذا الموضوع، هذه الآية تنطبق على شخصين، على زوجين، على شريكين، على جارين، على زميلين، على قريبين، على أسرتين، على عائلتين، على قبيلتين، على عشيرتين، على شعبين، على أمتين، على حضارتين، فهي قانون، ودروسنا هذه قوانين، قال تعالى:

(فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية: ١٤)

أسباب العداوة والبغضاء:

١ – المعصية:

حينما تختلف مع إنسان، وحينما تنشأ بين إنسانين عداوة وبغضاء فاعلم علم اليقين أن هذه العداوة والبغضاء سببها المعصية.

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[أحمد عن ابن عمر]

لأن الآخرة تسع الجميع، ولأن فضل الله عميم، ولأن أحداً في شأن الآخرة لا ينافس أحداً، أما حينما نتجه إلى الدنيا، ولا نعبأ بالآخرة فالدنيا محدودة، والمكاسب محدودة، وآبار النفط محدودة، فلا بد من منازعة، ولا بد من سفك دماء، فالقضية واضحة جداً ، الدنيا أحد أسباب العداوة والبغضاء، والآخرة أحد أسباب المودة واللقاء.

فهذه الآية أيها الإخوة، تنطبق على كل شخصين، بل على كل أسرتين، على كل شعبين، على كل أمتين.

(فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

أنا أحياناً أستعير من الأمن الجنائي قاعدة، فقد قالوا: " في كل جريمة ابحث عن المرأة "، أعجبتني هذه القاعدة، أنا عدلتها أقول: في كل مصيبة ابحث عن المعصية، وفي كل معصية ابحث عن الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

أيها الإخوة، بين زوجين، بين شريكين، واحد غير مستقيم، واحد يريد أن يأخذ ما ليس له، تنشأ العداوة والبغضاء، بين زوجين، يريد الزوج أن يأخذ مال زوجته ترفض، يطلقها، ما من عداوة على وجه الأرض إلا بسبب خلل بتطبيق الشرع، وأساساً عظمة الشرع أنه يحدد المسؤوليات، والحدود، والحقوق، والواجبات، من أجل أن تعيش حياة وادعة، آمنة، مطمئنة.

صدقوا أيها الإخوة، لو تصورنا مجتمعاً مسلماً فيه صدق، فيه أمانة، فيه عدل، فيه إنصاف، فيه رحمة، فيه حكمة، مجتمع كأنه جنة، وكل متاعبنا من المعاصي والآثام هي سبب العداوة والبغضاء، والآية واضحة:

(فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

الآن: الملك يلهم، والشيطان يوسوس، الشيطان أحد أكبر أهدافه أن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

نأتي بأمثلة:

أحياناً الشيطان يوسوس للمؤمن بالكفر فلا يستطيع، يجده على إيمان، يوسوس له بالشرك فلا يستطيع، يجده على توحيد، يوسوس له بالكبيرة فلا يستطيع، يجده على طاعة، يوسوس له بالصغيرة فلا يستطيع يجده على ورع، بقيت ورقتان، يوسوس له بالمباحات، حتى يغرق فيها، وينسى الآخرة، فإن رآه زاهداً بقي فمعه آخر ورقة يلعب بها، هذه الورقة هي التحرش بين المؤمنين.

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)

(سورة المائدة)

أول سبب للعداوة والبغضاء التناقض في البنى النفسية للإنسان، لما أدى المؤمن الأمانة اتصل بالله فاشتق منه الكمال، وصار منصفا، رحيما، متواضعا، لطيفا، وفيّا، صار يؤدي ما عليه، وينفذ وعده.

٢ ـ كثرة نقط الخلاف:

شيء آخر: المؤمن يجب أن تحبه، لأنه قريب، والذي لم يحمل الأمانة وخانها فهو لئيم، قذر، سفيه، بذيء اللسان، شهواني، أناني، وصولي، منبطح، منافق كذاب، دجال، وبضدها تتميز الأشياء، فلذلك أرادت حكمة الله أن نعيش معاً، وأن نكون معاً في كل مكان.

إذاً: معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، وحينما تجلس مع كذاب، وأنت صادق تبغضه، أنت حينما تجلس مع قاسي القلب، وأنت رحيم تبغضه، أنت حينما تجلس مع إنسان يأخذ ما ليس له، وأنت ورع تبغضه، لذلك أنشؤوا برنامجا كمبيوتريا للزواج في بلاد بعيدة، انطلقوا من أن الوفاق بين الزوجين سببه كثرة نقاط الالتقاء، وأن التنافر بين الزوجين سببه كثرة نقاط الخلاف، فيأتي طالب الزواج فيُسأل ألف سؤال تقريباً، في أدق تفاصيل حياته ويجيب، وتأتي الفتاة وتُسأل هذه الأسئلة وتجيب، بعد شهر يعود طالب الزواج إلى هذا الجهاز يسأله عن أقرب فتاة إليه عن طريق التقاطع، فأدى هذا البرنامج أهدافه بشكل رائع ، لكن أحياناً البرنامج الحاسوبي غبي جداً، أحياناً يطلب طالب الزواج اسم فتاة يعطيه اسم فتى، لأن نقاط اللقاء أكثر.

على كلٍ ؛ العداوة والبغضاء سببها نقاط الخلاف، والمودة والمحبة سببها نقاط اللقاء.

٣ ـ فساد ذات البين:

أيها الإخوة، يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي:

((إياكم وسوء ذات البين))

إياكم تحذيراً، وسوء ذات البين العلاقة السيئة بين أخوين، بين شريكين، بين قريبين، بين جارين، بين زوجين، بين إنسانين.

((إياكم وسوء ذات البين إنها الحالقة، قال: لا أقول: حالقة الشعر، ولكن أقول: حالقة الدين))

أحد أكبر أسباب الضعف سوء ذات البين، لذلك قال تعالى:

(فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: ١)

معنى: إصلاح ذات البين:

أي أصلح ما بينك وبين الله أولاً بالطاعة، والتوبة، والإنابة، ثم أصلح ما بينك وبين المؤمنين، ثم أصلح ما بين مؤمنين، هذه الآية دقيقة، تفهم على مستويات ثلاثة

(فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ)

أصلح ما بينك وبين الله بالتوبة والإنابة، وأصلح ما بينك وبين الآخرين بالتسامح والاعتذار والهدية والتوضيح والتبيين، وأصلح ما بين اثنين من باب العمل الصالح.

لذلك: المؤمن يصلح بين الناس، وغير المؤمن يفسد ما بينهم، أما غير المؤمن يشبه الشيطان:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)

أيها الإخوة الكرام، مرة ثانية:

((إياكم وسوء ذات البين إنها الحالقة، قال: لا أقول: حالقة الشعر، ولكن أقول: حالقة الدين))

خاتمة:

والمجتمعات الإسلامية حينما تتفلت من منهج الله تنشأ بينها العداوة والبغضاء ، لذلك الأذكياء بينهم قواسم مشتركة ٥% فيتعاونون، والمسلمون بينهم ٩٥ % قواسم مشتركة، والدماء تسيل كل يوم، وهذه وصمة عار بحق الأمة، نسأل الله أن يرد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً، وأن تكون بلادهم بلاد سلم ورخاء، إنه على ما يشاء قدير.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٠٤- ٢١) : التعسير والتسيير - التيسير له ثمن والتعسير له سبب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق في قانون التيسير والتعسير:

مقدمة وجيزة:

١ – كلمات لا حقيقة لها:

أيها الإخوة الأكارم، مع درس جديد من دروس سنن الله في خلقه، والموضوع اليوم قانون التيسير والتعسير.

هناك عند الناس مقولات عديدة وكثيرة ومنتشرة: فلان يده خضراء، فلان لا حظّ له، فلان قلب الدهرُ له ظهر المِجَنّ، فلان فوق الريح، فلان كيفما يتحرك يأتي واقفا ، هذا كله كلام ما له معنى، ولا يستند إلى واقع.

٢ – أفعال العباد بيد الله عز وجل:

الحقيقة الأولى في قانون التيسير والتعسير: أن أفعال العباد بيد الله عز وجل، أنت مخير، لكنك مخير أن تنبعث إلى عمل ما، أما آلية العمل فبيد الله عز وجل.

(وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

الحقيقة الأولى في الموضوع أن الله سبحانه وتعالى بيّنها، هذه الحقيقة الأولى فيها قصص كثيرة:

قصة سيدنا موسى عليه السلام:

مثلاً: سيدنا موسى: لمّا رأى فرعون في الرؤيا أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه، أخذ قرارا سريعا بقتل كل أبناء بني إسرائيل، وأيّة مولّدة لا تخبر عن مولود ذكر تُقتل مكانه، انتهى

الأمر، لكن هذا الطفل الذي سيقضي على ملكه فقد ربّاه في قصره، كيف رباه في قصره ؟ أمه خافت عليه من القتل، فألقته في اليم، تصور صندوقا يتحرك في نهر، هذا بيد مَن ؟ مَن سيره ؟

الفكرة الآن أدق، أدق الجزيئات، كل الحركات والسكنات بيد الله.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص)

والله شيء عجيب:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة الأنعام)

هناك أمران، ونهيان، وبشارتان، يُلقى طفل صغير في صندوق خشبي في النهر، ونهر النيل كالبحر:

مَن سيّره إلى جانب قصر فرعون ؟

مَن أوقفه عند غصن إلى جانب الشاطئ ؟

مَن ألهم امرأة فرعون أن تأتي إلى الشاطئ ففوجئت بهذا الصندوق، ففتحته ؟

مَن ألقى محبته في قلب امرأة فرعون ؟

الشعور بيد الله، والحركة بيد الله، حركة الجماد وحركة الحيوان، وحركة الإنسان، والمياه، والرياح، والانبعاث، والمشاعر، كلها بيد الله.

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة القصص)

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص الآية: ٨)

لامُ المآل،] لِيَكُونَ [هذه اللام في فلا يعقل أن تلتقط طفلا ليكون لك عدواً، أما في النهاية فالذي كان أن مُلك فرعون انتهى على يد هذا الطفل.

الأمر بيد الله، قضية دقيقة جداً، حياتك، رزقك، بيتك، زوجتك، أولادك، مَن حولك، مَن فوقك، مَن تحتك، المخلوقات، الحيوانات، كل شيء حولك بيد الله، رفعتك بيد الله، رزقك بيد الله، سعادتك بيد الله، أمنك بيد الله، خوفك بيد الله، شريان القلب التاجي بيد الله، نمو الخلايا بيد الله، سيولة الدم بيد الله، هذا الإيمان، كل شيء بيد الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

التوحيد أساس كل شيء:

حينما تؤمن أن يد الله وحدها تعمل، وأنه لا معطي، ولا مانع، ولا معز، ولا مذل، ولا خافض، ولا رافع، ولا مكرم، ولا مهين إلا الله، وأن كل علاقتك مع الله، حينما تؤمن بهذا الإيمان توحد وجهتك إلى الله، وتعقد الأمل على الله، ولا تخشى إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا ترجو إلا الله، ولا تضع الأمل إلا بالله، ولا تبتغي إلا ما عند الله ، هذا هو التوحيد.

فلذلك ما علاقة هذه المقدمة بالتيسير والتعسير ؟

لأن الأمر بيده، أمر زوجتك بيده، إما أنها تكون مطواعة بشكل رائع، التعامل معها سلس، أو أن ترى أنها قطعة من الجحيم، قد تكافأ بزوجة صالحة، وقد يؤدب الإنسان بزوجة تريه النجوم في الظهر، وقد يصلح له زوجة سيئة، الأمر بيد الله، بأدق التفاصيل، من أدق التفاصيل إلى أكبر التفاصيل، من خدش عود إلى حرب أهلية، إلى اجتياح، إلى احتلال.

حينما توحد حُلت أربع أخماس مشكلتك، حينما توحد، ألاّ ترى مع الله أحدا، لذلك هذا الكلام يلخَّص بهذه المقولة: كل شيء وقع أراده الله، معنى أراده أي سمح به فقط، قد يريد شيئاً، ولم يؤمر به، قد يريد شيئاً، ولم يرضَ عنه، أنت مخير، هويتك مخير.

أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرم، أنت المخلوق المكلف، لو ألغى الله حريتك لانتهى التكليف، انتهى حمل الأمانة، انتهت الجنة، انتهت النار، انتهى الثواب، انتهى العقاب، أنت مخير، وجئت إلى الدنيا على هذا الأساس، أنت مخير، ويمكن أن تفعل شيئاً أصررت عليه، والله لا يرضى أن تفعل هذا الشيء، كما لم يأمرك أن تفعله.

قال علماء العقيدة: أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضَ.

أنت صيدلي، وتحتاج إلى موظف ليعينك بعد الظهر، أردت أن تمتحنه، فأتيت له ببعض الأدوية، وقلت له: ضع هذه الأدوية في أماكنها في هذه الصيدلية، هذه فيتامينات، هذه سموم، هذه مضادات حيوية، هذه مقويات، فأخذ دواء السموم ليضعه مع الفيتامينات، إذا منعته فقد ألغي التكليف، ألغي الامتحان كله، وإذا سكتت فأنت أقوى منه، بإمكانك أن تمسك يده ضعها هنا، التغى الامتحان، الامتحان التغى كلياً.

فالله عز وجل أراد ولم يرضَ، أراد ولم يأمر، أي سمح به، لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد، إله عظيم يقع في ملك ما لا يريد ؟ هذا لا يتناسب مع ألوهية الإله العظيم.

كل شيء وقع أراده الله، وكلّ شيء أراده الله وقع لحكمة:

إذاً كل شيء وقع أراده الله، بمعنى سمح به، وكل شيء أراده الله وقع، شيء وقع أراده الله لحكمة بالغةٍ بالغة بَالغة،ٍشيء لم يقع أراد الله أن لا يقع لحكمة بالغةٍ بالغة بالغة، فالذي وقع أراده الله أي سمح به لحكمة بالغةٍ بالغة، وقد يكون الذي أوقعه مجرماً.

لذلك قالوا: لكل واقع حكمة، قد يقع الشيء في الظاهر فيه أذى كبير، لكن لأن الله سمح به هناك خير كبير، علِمه مَن علمه، وجهله من جهله، كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة.

أيها الإخوة، نقول: الله عز وجل عدله مطلق، حكمته مطلقة، كيف ؟ إذا كان هناك ستة آلاف مليون إنسان، وواحد ظُلم، هذا يتناقض مع عدل الله، إذا ظُلم عصفور فهذا يتناقض مع عدل الله، لأن عدل الله مطلق، أما عدل الإنسان فنسبي.

أصدر قاضٍ ألفَ حكم خلال ثلاثين سنة، منها خمسة أحكام فيها ظلم لضعف المعلومات، يسمى عند أهل الأرض قاضيا عدلا، لأن الأحكام للإنسان نسبية، أما الأحكام المتعلقة بذات الله مطلقة.

إنّ كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، ما معنى بالحكمة المطلقة ؟ أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، وأن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، خير مطلق.

كلمات عند العوام ليست مشروعة:

أيها الإخوة الأحباب، الشر المطلق لا وجود له في الكون، الشر المطلق يتناقض مع وجود الله، لا يمكن أن يكون هناك شر مطلق، إلا أن الشر نسبي، والله سبحانه وتعالى يوظفه للخير المطلق، هذه مقدمة.

قد تقول الأم: هذه البنت مسكينة لا حظ لها، هذا كلام لا معنى له، فلان قلب له الدهر ظهر المجن، هذا كلام لا معنى له، فلان أقبلت عليه الأيام تسره، هذا كلام لا معنى له، ما هي الأيام ؟ ما هو الدهر ؟ ما هو الدهر الذي قلب لك ظهر المجن ؟ فلان يده خضراء، فلان أينما تحرك يأتي واقفا، هذه كلها كلمات لا معنى لها.

قانون التيسير والتعسير مؤصَّل في آية قرآنية:

فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى

هناك معنى واحد، التيسير والتعسير له قانون، القانون الذي ينتظم التيسير والتعسير هذه الآية:

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

من هو ؟ الذي آمن بالآخرة، آمن أنه مخلوق للجنة، وبناء على هذا الإيمان اتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، يعطي من وقته، من ماله، مِن علمه، من جاهه.

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

أموره ميسرة

إنه قانون التيسير والتعسير لا غير:

أحياناً يقول لي شخص: كل الإشارات خضراء، وأنا أمشي، أحيانا كل إشارة حمراء ٧٦ ثانية، الثانية حمراء، والثالثة حمراء، بعد هذا يغضب، بدءاً من الإشارات ، وانتهاءً بالمهمات:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

زواجه موفق، زوجة صالحة تسره عن نظر إليها، تحفظه إن غاب عنها، تطيعه إن أمرها، وأحياناً تريه النجوم ظهراً، يقول له: بلاء من الله، ما ارتحت معها يوما، الزواج تيسر، والعمل تيسير، والرزق تيسير، والصحة تيسير، أحيانا خطأ بسيط في الجسم يقلب حياة الإنسان إلى جحيم، أحيانا خطأ بتناول دواء له مضاعفات خطيرة جداً.

يا أيها الإخوة، أحيانا يجري إنسان عملية استئصال كلية متوقفة عن العمل، ويعيش الإنسان عمرا مديدا بكلية واحدة، لكن الطبيب ينزع له الكلية السليمة، وقد قال لي أخ: والدي مكث عشر سنوات في غسيل كلية، لأنه أخطأ الطبيب معه فاستأصل الكلية السليمة، فهناك توفيق في الصحة، وتوفيق في الزواج، وتوفيق في العمل، وتوفيق في العلاقات العامة، وتوفيق في كسب الرزق، وتوفيق في إنفاق المال، وتوفيق في السفر.

قد يسافر الرجلُ، ووضع المحفظة في سيارة مكشوفة في القسم الخلفي، ثم ذهب ليصلي فسُرقت المحفظة، قال لي: بقيت مدة شهرين حتى أخذت وثيقة مغادرة، الأمور معقدة جداً، وأحيانا الأمور

ميسرة مريحة، وأحيانا معسرة، فكلمة (صدفة)، وكلمة (محظوظ، و(يده خضراء) هذا كلام فيه شرك، لأن هناك تيسيرا وتعسير.

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

أَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى

(أَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

آمن بالدنيا، وكذب بالآخرة، لأنه آمن بالدنيا فاستغنى عن طاعة الله، ولأنه آمن بالدنيا، واستغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ، فلذلك هذا الإنسان أينما تحرك كانت الأمور معسرة، فلا سعادة، ولا توفيق، ولا يسر، ولا عسر، فأينما تحرك كان الباب مغلقا، والجواب: مع عدم الموافقة، وكلما طرق باب يجده مغلقا، فيجب أن تنتبه.

حدثني أخ من إخواننا الكرام، وله مكانة، يعمل بحرفة راقية، بحاسوب صناعي، هو خبير كبير فيه، حدثني فقال: طلب مني إنسان إصلاح حاسوب معمل فطلبت مبلغًا ضمن قناعتي، وهو مبلغ مناسب، لكن الرجل شدّد عليه، وحاسبه، وطلب منه يخفض السعر بإلحاحٍ كبير حتى أضجره، فقال له: أنا لست بحاجة لك، أنت بحاجة لي، تحب أن آتي إليك فادفع المبلغ ؟ أنا جاهز بهذا الرقم، قال له: تعال، أقسم لي هذا الأخ في خلال عشر سنوات أو أكثر الأمر يحتاج ساعتين أو ثلاثا، الأمر على الإنجاز، قال لي: أول يوم للمساء لم يصلح، ما كشفت أين الخلل، ثاني يوم، ثالث يوم، رابع يوم، خامس يوم، سادس يوم، أقسم بالله تسعة أيام ما اهتدى للحل، بعدها طلب إجازة، راجع نفسه، أين الخطأ ؟ قال: فقال: أنا قلت له: أنا لست بحاجة لك، أنت بحاجة لي، وهذه كلمة تجبر، فتاب إلى الله، دفع صدقة، قال لي: عاشر يوم في ربع ساعة حلّت القضية.

أحيانا تعسر الأمور، و أحيانا تيسر، أحيانا هذا الموظف يخطر بباله أن يطالبك بوثيقة كان ممكنا ألاّ يطالبك بها، تكلفك ثمانية أيام سفر، وتصديق، فتجد أنك قد خرجت من جلدك على هذا الطلب الذي لا يطلب دائماً، هكذا خطر بباله أن يطلب منك، وأحيانا تحس أن هذا الموظف راغب في أن يعينك بشكل واضح .

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ:

((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

[الترمذي]

فإذا كنت تستحق التكريم يلقي الله محبتك في قلوب الخلق، فيعينونك، وإذا كان الإنسان يستحق التأديب يلقي الله البغض في قلوب الخلق، فيتفننون بإحراجه، يتفننون بإزعاجه، يتفننون بتعقيد الأمر عليه.

التيسير مريح جداً أيها الإخوة، والتعسير صعب جداً، التيسير مريح وله ثمن، والتعسير مزعج وله سبب، التيسير له ثمن، والعسير له سبب.

أيها الإخوة، الأصل في هذا الموضوع هذه الآية:

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * أَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

لماذا كذب بالحسنى، واستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ ؟ من أجل أن يجمع المال الوفير كي يستمتع به في الدنيا، قال:

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

التيسير له ثمن ن والتعسير له سببٌ:

أيها الإخوة الكرام، قضية التيسر والتعسير شيء مهم جداً في حياتك، مهم بزواجك مهم بعملك، مهم بدراستك، فقد تجد أستاذا في جامعة أجنبية من أصل يهودي يتفنن في إزعاجك، يتفنن بوضع العراقيل أمام شهادتك، وطالب آخر مع أستاذ آخر، الأمر مسير.

التيسير والتعسير موضوع مهم جداً في حياتنا، وله ثمن، التعسير له سبب، والتيسير له ثمن.

وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا

لكن أيها الإخوة، هناك آية والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت، قال:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

مستحيل وألف ألف ألفِ مستحيل أن تتقي الله، ثم لا تجد التيسير والراحة النفسية، أن تتقي الله، ثم لا تجد أن كل مَن حولك في خدمتك، إذا يسر الله الأمور يخدمك عدوك، وإذا عسر الله الأمور يتطاول عليك أقرب الناس إليك.

عموم التقوى:

فلذلك:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ)

من يتقي الله في الاختيار زوجتك،

(يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

من زوجة سيئة تؤذيه، من يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجا من عقوقه، من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من إتلاف المال أو مصادرته، أو من تجارة خاسرة، أو من صفقة خاسرة، من يتق الله في التوحيد يجعل الله له مخرجاً من الشرك، من يتق الله في صحته يجعل الله له مخرجاً من المرض، آية واسعة جداً:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا

آية ثانية:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

(سورة الطلاق)

التيسير والتعسير.

(يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ)

(سورة البقرة الآية: ١٨٥)

الله عز وجل قد يسمح لك بعمل نتائجُه تعسير أمورك، لأنك أنت اخترته، فيسمح لك بعمل أنت مخير، ونتائج هذا العمل تعسير لأمورك، لكن:

(يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ)

(وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

(سورة البقرة الآية: ١٨٥)

هذه آية مهمة جداً.

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

(سورة الشرح)

خرج النبي عليه الصلاة والسلام يوماً مسروراً فرحاً، ضحاكاً وهو يقول:

((لن يغلب عسر يسراً، إن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن الحسن]

الكلمة إذا تكررت، وكانت معرف فهي بمعنى واحد، أما إذا جاءت نكرة، وتكررت فهي بمعنى آخر، لذلك صار عندنا عسر واحد ويسران، ولن يغلب عسر يسرين.

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام كتطبيق عملي: أنتم أيها المؤمنون يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا، وسددوا وقاربوا، كما أنك تريد من الله أن ييسر عليك، أنت يسِّر على من حولك.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((قَالَ رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى))

[البخاري]

قانون التيسير والعسير أصله هذه الآية:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – الإنسان مخلوق للجنة:

الإنسان أيها الإخوة حينما يؤمن إيماناً يقينياً بحسب القرآن الكريم أنه مخلوق للجنة، وأن في الجنة:

((مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

وأن هذه الحياة الدنيا حياة دنيا، زائلة، لا قيمة لها، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[رواه الترمذي]

وأن هذه الدنيا ممر، وليست مقرا، وأنها دار تكليف لا دار تشريف، وأنها دار عمل لا دار أمل، وأن هذه الدنيا مزرعة الآخرة، وأن هذه الدنيا فيها جنة هي جنة القرب.

حينما يؤمن الإنسان أنه مخلوق للجنة، وأن أكبر فوز يفوزه هو إذا:

(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ)

(سورة آل عمران الآية: ١٨٥)

وأن أكبر خسارة يتحملها إذا خسر الدار الآخرة.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية: ١٥)

٢ – لابد للإنسان من الإحسان إلى الخَلق:

إذا آمن أنه مخلوق للجنة، وهو الآن في الدنيا، ما هو أفضل عمل على الإطلاق ؟ أن يعمل عملاً يؤهله لدخول الجنة، هذا العمل متعلق مع البشر، إذا كان صادقاً أميناً، مخلصاً، عدلاً، رحيماً، وقافاً عند حدود الله، هؤلاء البشر مهمتك الأولى أن تدلهم على الله، فلابد من أن يلتفتوا حولك.

قانون الالتفاف والانفضاض:

١ – أهمية قانون الالتفاف والانفضاض:

هنا جاءت أهمية هذا القانون، الدعاة، المربون، أولياء الأمور، أيّ إنسان له منصب قيادي، أو عمل دعوي، بدءاً من الأب، وانتهاءً بأمير المؤمنين.

لذلك ما هو قانون أن يلتف الناس حولك ؟ وأن يحبوك، وأن يصغوا إليك، وأن يهتموا بكلامك ؟ وأن يطيعوا أمرك، يجب أن يلتفوا حولك، كيف يلتفون حولك ؟ الجواب في هذه الآية، أما إذا انفضوا من حولك فهل تستطيع أن تقدم لهم خدمة، أو أن تهديهم إلى سواء السبيل، أو أن تأخذ بيدهم إلى الله، أو أن يصدقوك.

لذلك الأب، الأم، المعلم، المؤمن، إي إنسان يحتاج لهذا القانون كي يتخذه سبباً للالتفاف الناس حولك.

٢ – أعظمُ عملٍ هداية الناس إلى الله:

مثلاً النبي عليه الصلاة والسلام يقول: يا علي:

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

أعظم عمل على الإطلاق أن تأخذ بيد إنسان إلى الله، والله شكور.

((خير له مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

((خير لك من الدنيا وما فيها))

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي]

إذاً: أنا أخاطب من آمن بالله الإيمان الذي حمله على طاعته، ومن آمن باليوم الآخر الإيمان الذي متعه أن يؤذي مخلوقاً، أنه مخلوق للجنة، وأن ثمن الجنة يدفع في الدنيا، وأن أعظم ثمن، وأربح عمل أن تكون سبباً في هداية الخلق، وأن الخلق لا يهتدوا بك إلا إذا التفوا حولك، كيف يلتفون حولك ؟ هذا قانون الالتفاف، ولماذا ينفضون عنك، هذا قانون الانفضاض.

٣ – البطولة أن تدخل الكلمة قلب السامع:

فلذلك أيها الإخوة، البطولة لا أن تقول كلمة الحق، أن تدخل هذه الكلمة إلى قلب من يسمعك، البطولة لا أن تلقي كلاماً، أن تحدث تأثيراً، البطولة لا أن تعرض عضلاتك علينا، ولكن البطولة أن تأخذ بأيدينا إلى الله.

فلذلك أي إنسان بلغ درجة اليقين أنه مخلوق للجنة، وأن ثمن الجنة يدفع في الدنيا، وأن أعظم عمل في الدنيا أن تكون سبباً في هداية الآخرين، إنه قانون الالتفاف، وقانون الانفضاض.

أحياناً يشكي الزوج أن زوجته ليست معه، وأن أولاده ليسوا معه، أحياناً يشكو المعلم أن طلابه لا يلتفتون إليه، أحياناً يشكو المربي أن من حوله ليسوا كما ينبغي أن يكونوا، كل هذه المشكلات، وتلك الإيجابيات مذكورة في قانون الالتفاف والانفضاض.

أصلُ قانون الالتفاف والانفضاض في القرآن الكريم:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ

هذا القانون أيها الإخوة، يقول الله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٩)

الباء هنا باء السببية:

(فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ)

(سورة النساء الآية: ١٦٠)

هذه باء السبب.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٩)

أي بسبب رحمة استقرت بقلبك يا محمد (لِنتَ لَهُمْ)، من أين جاءته هذه الرحمة ؟ من اتصاله بالله.

حقائق قانون الالتفاف والانفضاض:

١ ــ مكارم الأخلاق مخزونة عند الله:

الآن الحقيقة الأولى أن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، الأخلاق الأصيلة التي لا تتأثر لا بإقبال الدنيا، ولا بإدبارها، ولا بثناء الناس ولا بذمهم.

الأخلاق الأصيلة التي تقبل بها على الله، التي تعد قربة إلى الله.

الأخلاق الأصيلة تتأتى إليك من اتصالك بالله، ومستحيل أن تتصل بالرحيم وتكون قاسي القلب، مستحيل أن تتصل بالعدل وتكون ظالماً، مستحيل أن تتصل باللطيف، وتكون فظاً غليظاً، مستحيل.

لذلك علامة إيمان المؤمن، وعلامة إحكام صلته بالله أن يشتق الكمال من الله ، قال تعالى:

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٠)

يعني اتصلوا به، واشتقوا من كمال كمالاً ليكون هذا الكمال اتصالاً به ودعوتكم له.

(فبِمَا)

الباء باء السبب، أي: بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد ، بسبب اتصالك بنا، اتصلت، في القلب في رحمة، ترحم أهلك، ترحم أباك، ترحم أمك ، ترحم زوجتك، ترحم أولادك، ترحم المريض إن كنت طبيباً، ترحم هذا الموكل إن كنت محامياً، ترحم صاحب هذه الأرض إن كنت مهندساً.

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي))

[رواه الديلمي عن أبي بكر]

أيها الإخوة الكرام،

(فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

٢ ــ الرحمة تنعكس ليناً:

القلب الرحيم ينعكس ليناً في المعاملة، والمؤمن الرحيم لطيف مؤنس، يألف ويؤلف، تحب من حولك، ترعى مصالحهم، تهتم بمشاعرهم، تحترمهم، توقرهم، لا تستعلي عليهم، لا تتطاول عليهم.

(فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

هذا اللين انعكاس الرحمة، بالقلب في رحمة، بالسلوك في لين.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى))

[البخاري]

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

٣ ــ القلب القاسي ينعكس معاملة قاسية:

بالمقابل ما سبب انفضاض الناس عنك ؟ تحمل شهادة عليا، طليق اللسان، المتكلم، معك الحجة والتحليل، ما معك أحد

(وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٩)

أي: لو كنت منقطعاً عنا، فإذا انقطع الإنسان عن الله عز وجل امتلأ قلبه قسوة، وهذه القسوة تترجم غلظة وفظاظة.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٩)

هل تحب أن يلتف ابنك حولك ؟ كن ليناً معه، كن رحيماً به، كن منصفاً في عملك.

هل تحب أن تميل زوجتك إليك، وتطيعك، وتنفذ أمرك، وما تخونك، وما تفرط في مالك، وتكون طوع إرادتك ؟ كن لطيفاً معها.

٤ ــ الرحمة ضرورية في قلب الإنسان:

بسبب رحمة استقرت بقلبك يا محمد،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

أما إذا رأيت الناس قد نفروا عنك في قسوة، في غلظة، في فظاظة، فإن القسوة في القلب تترجم إلى غلظة وإلى فظاظة.

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلَا لِمَ صَنَعْتَ ؟ وَلَا أَلَّا صَنَعْتَ ؟))

[متفق عليه]

كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليناً، وكان يقول:

((أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم))

[ابن عساكر عن علي بسند فيه مقال كبير]

كان يسمي النساء المؤنسات الغاليات.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

((جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ، فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ ؟))

[متفق عليه]

يا إخواننا الكرام، مقياس دقيق دقيق، هل ترحم من حولك ؟ هل تشعر بدافع قوي إلى أن ترحم من حولك ؟ علامة إيمانك ورب الكعبة، أما القلب القاسي:

(فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الزمر الآية: ٢٢)

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

هل في قلبك رحمة ؟ هل في قلبك رحمة لهرة ؟ هل في قلبك رحمة لنملة تصعد على المغسلة، وفتحت الماء وأغرقتها ؟ ما شاء الله، هناك إنسان يسمح لها أن تنقذ نفسها، والله رحمتك لنملة لا يضيع عند الله أجرها، ووالله إن المؤمن لا يستطيع أن يدوس نملة عن قصد.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

المؤمن رحيم، المؤمن قلبه رحيم، المؤمن لطيف، المؤمن لين، المؤمن يحب من حوله.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ)

لو كنت منقطعاً عنا لامتلأ قلبك قسوة، ولانعكست القسوة غلظة وفظاظة، عندئذٍ ينفض الناس عنك، هذا الكلام يحتاجه الأب، يحتاجه المعلم، يحتاجه المربي، يحتاجه الشيخ، يحتاجه الداعية، يحتاجه مدير المؤسسة، حتى تتحرك الفعاليات في المؤسسة براحة، وبنفس رضية، وبرغبة بالخدمة.

كنت في بلد بعيد جداً، وهو متفوق في صناعة السيارات، زرت أحد المعامل، وأنبأني كبير المهندسين أن هذا البلد هو الأول في العالم في صناعة السيارات، ثم فوجئ أن على الطرقات كل عشر سيارات ثماني سيارات صنعت في اليابان، فقد غزيت هذه البلاد المتفوقة في صناعة السيارات في عقر دارها، كل عشر سيارات في أمريكا ثمانية من صنع اليابان، يقول لي هذا المهندس: أرسلوا خبراء إلى تلك البلاد، ليدرسوا أين التفوق، فوجئوا أنهم ليسوا متفوقين كالبلد الذي

جاؤوا منها إطلاقاً، أين التفوق ؟ هكذا قال لي بالتعبير الأجنبي: سيسولوجي، أي اجتماعي، مدير المعمل يأكل مع العمال، يطمئنهم ، يرعى مصالحهم، يهتم بهم، المعمل لا يمكن أن يسرح عماله، هذا عامل ثابت، لا يسرح ، هذا الود الشديد بين مدير المعمل والعمال جعل هؤلاء العمال يتقنون عملهم إتقاناً بالغاً، وإتقان العمل انعكس رواجا لهذه السيارة، وانعكس مبيعات عالية جداً، بالحرف الواحد قال لي: سبب التفوق ليس تقنياً، ولكنه اجتماعي.

أحيانا يستشير أب ابنه، فيرفع معنوياته، في الأعم الأغلب يصعب من تثق به أن يخونك، فهناك أب يمنح الثقة لابنه، وهناك أخ يمنح الثقة لأخيه، وهناك معلم يمنح الثقة لطلابه، ما دام هناك ثقة متبادلة، ما دام هناك رحمة، ما دام هناك لطف، ما دام هناك لين، ما الذي يمنع إذا كنت مدير مؤسسة كبيرا، وعندك مستخدم حاجب، أن تسأله: كيف الصحة يا بني ؟ هل أنت مرتاح ؟ هل أهلك بخير ؟ والله لا ينسى هذا شهرا، من كلمة واحدة.

أنا أذكر مرة أخا من إخواننا اشترى بيتا ببعض المدن خارج دمشق، قال لي: كلما آتي بحاجة للبيت يفتح جارنا من تحت فيعنني فيها، شيء جميل، يأتي لي بإبريق شاي، قال له: أنت من عرفك بي ؟ قال له: في الجامع، قال له: هل تحب أن أقول لك قصتي مع هذا الجامع ؟ قال له: تفضل، قال له: أنا لي ابن خال، ألح علي في حضور الدروس بشكل غير معقول، إلى أن أضجرني، فمرة أردت أن أستجيب له لأرتاح منه، جاء إلى الدرس، هو فقير جداً، ودخْله محدود جداً، جاء مرة واحدة ليتخلص من ابن خالته، وأحيانا كلمة تقرب إنسانا منك، وتجد هناك إنسانا أخذ لنفسه الكهنوت، والهيمنة، والسيطرة .

النبي كان يجلس مع الخادم، يمشي في الطريق استوقفته امرأة ضعيفة، فقيرة فوقف معها طويلاً يكلمها في حاجتها، معه عدي بن حاتم، ملِك، قال: والله ما هذا بأمر ملِك، هذا نبي، وليس ملِكا.
لما دخل عليه سيدنا عمر رآه ينام على حصير، وقد أثر في خده الشريف، فبكى عمر، فقال له: يا عمر ماذا يبكيك ؟ قال له: رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟! قال يا عمر ـ دققوا ـ إنما هي نبوة، وليست ملكاً.

تتواضع، تلين مع الناس فيحبونك، ويلتفون حولك، ساعتئذٍ يصغون إليك، ساعتئذٍ ينتبهون إلى كلامك، ساعتئذٍ يستجيبون لك.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

والله حدثني أخ، كان في بلد نفطي، والمدير قاسٍ جداً، إذا كان قرع الجرس لا يستطيع المدرس أن يشرب كأس ماء، فوراً إلى الدرس، قال لي: صببت كأس شاي، وهممت أن أشربه فقُرع الجرس، أمامه خادم يسمونه فراشا هناك، قال لي: أعطيته إياه، هذا الفرّاش ثاني يوم قال له: أنا هنا لي

سنتين، ما أحد سلم علي، لماذا قدمت لي هذا الكأس من الشاي ؟ ماذا يقول له ؟ أنا لا أستطيع أن أشربه، لا، قال له: أنت واحد منا، فأحببت أن أضيفك، قال له: شكراً، أنا معي ماجستير، الفرّاش، قال لي: معقول ؟ ما صدّقه، ما عنده عمل في بلده، وما أتيح له إلا عمل فرّاش في بلدنا، قال لي: والله ما صدقته، دعيته إلى بيتي، أتيت له بموسوعة باللغة الإنكليزية، قال لي: قرأها كالبلبل، هو غير مسلم، قال لي: خلال سبع جلسات أسلم، وأسلم معه اثنا عشر رجلا، وصاروا يقيمون درسا أسبوعيا في البيت، هذا كان ثمنه كأس شاي.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

ألا تحب أن تهدي من حولك، ألا تحب أن يكون الناس محبين لك ؟ لذلك:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

اتصل بالله يمتلئ القلب رحمة، الرحمة تنعكس لينا، عندئذٍ يلتف الناس حولك، ولو لم تكن متصلاً بالله لامتلأ القلب قسوة، ومع هذه القسوة غلظة وفظاظة، فينفض الناس من حولك.

أنت كأب يا ترى يكون العيد إذا دخلت إلى البيت، أم أما إذا خرجت منه ؟ هناك أب يكون العيد بخروجه من البيت، لأنه قاسٍ في البيت، كلامه قاس، فيه سبٌّ، يقول لابنه: أنت غبي، وأنت حمار، وأنت لا تفهم، وهناك أب يدخل إلى البيت فيكون العيد، يسأل عن أحوال أبنائه، كيف دروسك ؟ كيف مدرستك ؟ طمئني عنك، ما سمعت اليوم في دروسك ؟ هذا درس لنا كلنا، للأب، وللأم، وللمعلم، وللداعية.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ)

قانون الالتفاف الانفضاض يحتاجه كل إنسان:

أيها الإخوة الكرام، هذا الموضوع يحتاجه كل إنسان:

ألا تحب أن تعمل عملاً صالحاً ؟

ألا تحب أن يهتدي الناس بك ؟

ألا تحب أن تكون هادياً مهدياً ؟

ألا تحب أن تكون داعية إلى الله ؟

أنت بحاجة إلى اتصال بالله، هذا الاتصال يجعل قلبك رحيماً، هذه الرحمة تنعكس ليناً، هذا اللين يجذب الناس إليك، ويلتفون حولك.

تعليق مهم:

هذا الخطاب للنبي، فما بالكُ بمَن هو دونه:

تعليق الأخير: النبي ـ دققوا، نبي، ورسول، وسيد الأنبياء والمرسلين، وسيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، ويوحى إليه، ومعه القرآن، ومعه المعجزات، وكان جميل الصورة، وكان فصيح اللسان، وكان رحيماً، قال له: أنت يا محمد مع كل هذه الخصائص:

(وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ)

يأتي الآن داعية ليس بنبي، ولا رسول، ولا يوحى إليه، ولا معه قرآن، ولا معه معجزة، ولا فصيح اللسان، وليس جميل الصورة، ومع ذلك هو غليظ.

هذا الكلام دقيق:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ)

بالبر يستعبد الحر.

((بعثت بمداراة الناس))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر]

المداراة، والحلم، واللطف، والذوق.

هناك رجلان سوريان في لندن، لهم صديق بريطاني، كلما اقترب منهم يتكلمون بالإنكليزي، فلفت نظره ذلك، ما حصل ؟ قالا له، نبينا عليه الصلاة والسلام نهانا أن يتناجى اثنان دون ثالث، فإن هذا يحزنه، النبي حضاري، وأسلم، تأثرَ تأثرا بالغا، كلما اقترب منهم يتكلمون بالإنكليزي، إن كانوا وحدهم يتكلمون بالعربية، ما فهم ما السر حتى فهم توجيه النبي.

((إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فَلا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ))

[رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه]

خاتمة:

أيها الإخوة، كأب، كأم، والله هناك آباء هم من الذكاء والحكمة واللطف، إذ هو في الأسرة

كقطعة من الجنة، **البيت** جنة، بطولتك إذا دخلت إلى البيت صار في البيت عيد، والعياذ بالله الرجل الثاني إذا خرج من البيت صار العيد، وإذا مرض هذا الأب، وكان قاسيا، وجاء الطبيب، وقال لهم: حالة عَرضية، كيف عرضية ؟! لا يريدونها عرضية، يريدونها القاضية، فبطولتك هذه الآية كأب، كأم، كمعلم، كمربٍّ، كمدير معمل، كمدير مؤسسة، كمدير مدرسة، أي منصب قيادي، بدءاً من الأب.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٠٦- ٢١) : الحياة الطيبة والمعيشة الضنك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – الإنسان مفطور على حبِّ الحياة الطيبة:

أؤكد لكم ولا أبالغ أنه على وجه الأرض ستة آلاف مليون، ما منهم واحد إلا ويتمنى السلامة والسعادة، وبتعبير قرآني يتمنى الحياة الطيبة، يفهمها راحة نفسية ، يفهمها سمعة طيبة، يفهمها صحة، يفهمها مكانة، يفهمها تيسيرا، يفهمها سرورا، يفهمها رضى، يفهمها توفيقا، هذه حياة طيبة، والمطلق على إطلاقه.

٢ – الإنسان مفطور على بغض المعيشة الضنك:

وما من واحد إلا ويتألم ألما لا حدود له من المعيشة الضنك، وهي تعني التعسير، والضيق، والانقباض، والشعور بالقهر، والإحباط، واليأس، والحقد، فتلك حياة طيبة، وهذه حياة ضنك.

٣ – ليس المحسنُ عند الله كالمسيء:

أولاً: مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يعامل المحسن عند الله كالمسيء ، والمستقيم كالمنحرف، والمنصف كالظالم، والمخلص كالخائن، والدليل، بالمناسبة في الدين ليس هناك رأي شخصي، الدليل:

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[السجزي عن أبي هريرة]

((ابن عمر، دينك دِينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

وأنا أتمنى على كل واحد منا ألا يقبل في الدين شيئاً من دون دليل، وأتمنى عليه أيضاً ألا يرفض في الدين شيئاً من دون دليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، الدليل على أنه مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يعامل الله المستقيم كالمنحرف، أو المنحرف كالمستقيم، والصادق كالكاذب، والمحسن كالمسيء، والمنصف كالجاحد، والمخلص كالخائن هذه الآية، ووالله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

في البيع والشراء يسيء، يغش، يكذب، كشف أن هذا الشاري جهول بالسعر، فيرفع عليه السعر، وإن كان جاهلا بالنوع يبيعه السلعة السيئة على أنها جيدة، هذه إساءة، إساءة بالبيع والشراء، وهناك إساءة في الدراسة، يغش، وإساءة بالعمل، إذْ يحب الموظف أن يرتاح، فيأتيه مراجع من مكان بعيد فلا يلبّي حاجته، أو يضع أمامه العراقيل ليبتز من ماله.

٤ ــ بالفطرة ندرك العمل الطيب والعمل السيِّئ:

بالفطرة نحن جميعاً ندرك العمل الطيب، والعمل السيئ، والإنسان كما قال الله عز وجل:

(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

فالإنسان بالفطرة يعرف ما إذا كان مستقيماً أو منحرفاً، الآية الدقيقة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

والله أيها الإخوة، لولا أن الله فطرنا فطرة عالية حيث إنك تكشف خطأك ذاتياً، وتعلم علم اليقين ما إذا كذبت على هذا الإنسان أو صدقته، ما إذا غششته أو نصحته، ما إذا ورطته أو حفظته، ما إذا كذبت عليه أو صدقته، ما إذا أعطيته أو منعتَه، هذا شيء يكشف بالفطرة.

الآن الإنسان إذا كان عمله جيدا:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

(أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

صدقوا ولا أبالغ، هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب، كلمة كبيرة جداً، بل يتناقض مع وجوده.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنين الآية: ١١٥)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

إنسان يغش المسلمين، يبيعهم بضاعة لا تصلح للطعام البشري، لكن بأساليب أو بأخرى يدخلها، أو باستثناءات، ويبيع الناس، يتوهم أنه سيربح أرباحا طائلة، ويعيش حياة رغيدة، ثم يفاجَأ بمرض عضال، ثم يفاجأ بمصادرة المال، ثم يفاجأ بتلف البضاعة، ثم يفاجأ بورطة كبيرة جداً، فيدمره الله عز وجل.

إخواننا الكرام، أحد أكبر أنواع الغباء ألا تدخل الله في حساباتك، تظن بذكائك أنك تجمع أموالاً طائلة.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

والله الذي لا إله إلا هو تعرف أنت بفطرتك من دون تعليم، من دون توجيه ، من دون نصح، تعرف بفطرتك ما إذا كنت محسناً أو مسيئاً، نصوحاً أو غشاشاً، مخلصاً أو خائناً، رحيماً قاسياً أو منصفاً أو جاحداً.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

المستقيمون لهم حياة طيبة:

أنا أبشر الإخوة الكرام المستقيمين بحياة طيبة، وهذه ليست من عندي، بل هي من عند خالق السماوات والأرض.

والله أقول لكم هذه الكلمة: يكاد المؤمن يعلم الغيب، يكاد، معنى يكاد أنه لا يعلم الغيب، لكن يعلم القوانين الإلهية.

اشترى إنسان مع أخته بيتا، ودفع كلٌّ منهما ثمن البيت مناصفة، لكن البيت لجمعية تعاونية خاصة بالمحامين، أخته هي المحامية، فهو باسم الأخت، أخوها فدفع النصف، بالتمام والكمال، البيت كان ثمنه ٢٥٠ أف ليرة، صار ثمنه ١٣ مليون ليرة، وباسم الأخت، التي طمعت في البيت بحكم أنها في القضاء، وخبيرة، ومحامية، ألزمته أن يخرج من البيت، ما ترك وسيلة، وابنه أحد إخوتنا، والقصة طويلة، أخرجته من البيت إنسان واستولت على البيت وحدها، فقال لي الأخ: هكذا فعلت عمتي معنا، أخوها عنده ١٤ ولدا، استأجروا مستودعات في الغوطة، وتوزعوا بين الأهل، حياتهم تعيسة جداً، أنا والله قلت له: الله العليم، الله عز وجل سينتقم منها أشد الانتقام، لكن متى ؟ لا أعرف، والله غاب عني شهرا، ثم جاءني وقال: عمتي مصابة بالسرطان، ويمكن للسرطان أن يدوم فترة طويلة، غاب شهرا ثانيا، ثم قال لي: والله ماتت، هل يمكن أن تلقي لنا كلمة في التعزية ؟ وذهبت إلى البيت، وألقيت الكلمة، لكن مَن وريثها الوحيد ؟ أخوها.

ليسوا سواءً قطعا:

إخواننا الكرام، إذا لم يُدخِلِ الإنسانُ اللهَ في حساباته يكون أحمق، يكون غبيا، يدمر ذاته بيده.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سَوَاء مَّحْيَاهُم)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

دقق، الآخرة موضوع ثان، الآن في الدنيا، زواجه، هل زواج هذا كزواج هذا ؟ هل صحة هذا كصحة هذا ؟ هل سمعة هذا كسمعة هذا ؟ هل مكانة هذا كمكانة هذا ؟

(سَوَاء مَّحْيَاهُم)

في الدنيا قبل الآخرة.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

الغباء كل الغباء، والحمق كل الحمق، والضلال كل الضلال أن تتوهم أنه بذكائك أن تجمع المال على حساب حقوق الآخرين، وتنجو من عذاب الله، فيكاد المؤمن يعلم الغيب، لأنه يعلم قوانين الله عز وجل، وفي هذه الدروس إن شاء الله سوف نعالج ثلاثين قانونا من قوانين القرآن الكريم.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

آية قرآنية أصلٌ في تقرير الحياة الطيبة:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

أيها الإخوة، الآن الآية الأصل في هذا القانون، وهذه بشارة لكل مؤمن، لكل شاب.

والله أعرف أحد رجال الدعوة إلى الله كان يحدثني، يقول لي: كلما رأيت شاباً مستقيماً أقول له: أبشر ولا تخف، إنها ثقة بالله عز وجل، وأنا أقول لكم: أيها الشباب، المستقيم منكم نبشره بحياة طيبة، الآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

(سورة النحل الآية: ٩٧)

١ ـ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

هذه كلمة واسعة جدًّا، بزواجه كان صالحا، في كسب ماله كان صالحا، في علاقاته مع النساء كان عفيفا، في حكمه إذا كان قاضيا كان عدلا

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

واسعة جداً، الطالب صالح، والمدرس صالح، والمحامي صالح، والطبيب صالح، والتاجر صالح، والمزارع صالح، وتعلم علم اليقين وبالفطرة ما إذا كنت صالحاً أو غير صالح.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

(سورة النحل الآية: ٩٧)

٢ ـ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى

هذا قانون، (مَن) أداة شرط لازمة، أكثر القوانين على صيغة شرط، كـ: مَن يجتهد ينجح.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

بشكل مطلق، في أي مكان، في أي زمان، في أي عصر، في أي مصر، من آدم إلى يوم القيامة.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

هذه الآية بشارة لكل شاب مؤمن، حتى إنْ لم يملك شيئًا، لا بيتا، ولا دخلا كافيا، ولا وظيفة، ولا تجارة، وهو متفتح بالحياة، ولا أمل له، كيف يهيئ الله عز وجل له عملا، وزوجة، وبيتا، وحياة سعيدة، واستقامته فقط ؟ مع الله عز وجل لا يفلح الذكي، يفلح المستقيم، والذكي يؤتى من مأمنه، ويؤتى الحذِر من مأمنه.

٣ ـ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

هذا إله، هذا الوعد فوق المكان والزمان، فوق الظروف، بلاد متخلفة، بلاد متقدمة، بلاد غنية، بلاد فقيرة، لرجل ساكن في الريف، أو ساكن في المدينة، دخله محدود، أو دخله غير محدود، موظف، تاجر، هذه الأمور لا علاقة لها هنا علاقة، بأي مكان، بأي زمان، بأي عصر، بأي مصر، بأي ظرف، بأي بيئة:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

لكن إياكم والحياة الضنك:

١ – وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا

بالمقابل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي)

(سورة طه الآية: ١٢٤)

الصلاة ذكر، وهو قد أعرض عن الصلاة، والقرآن ذكر، وهو أعرض عن القرآن.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي)

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه الآية: ١٢٤)

أقول لكم: إذا كان في الأرض، أو من آدم إلى يوم القيامة إنسان واحد مُعرض عن ذكر الله، وهو سعيد فهناك إشكال في هذا الدين، هذا كلام خالق الأكوان، وزوال الكون أهون عند الله من ألا تحقق هذه الآية:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي)

الذي ما صلى، ما ذكر، ما صام، ما حج وهو مستطيع، ما قرأ القرآن إطلاقاً، بل تابع المسلسلات والأفلام، والسياسة والأخبار، والمجلات والإنترنت، والفضائيات، وما قرأ القرآن، ولا الحديث ولا السيرة، ولا المثل العليا في حياة الصحابة.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

٢ – المعيشة الضنك معيشة قاسية جدا، ولو مع الغنى:

متعبة، ولو كان الرجل غنيا، لأنه يضيق قلبُه، دقق، إياك، ثم إياك، ثم إياك أن تتوهم أن الحياة الطيبة تعني الغنى، والله الذي لا إله إلا هو الكهف الذي كان فيه أصحاب الكهف جنة.

أحياناً والله حينما تفقد حريتك، وكنتَ مع الله فالمكان الذي أنت فيه جنة، وبطن الحوت جنة، سيدنا يونس، والغار جنة، هذه السكينة، يمنحك الله السكينة، تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

سأل بعضهم مفسراً: ما بال الأغنياء والملوك ؟ المال بين أيديهم كثير، ولا مشكلة لديهم في الدخل إطلاقاً، قال: ضيق الوقت، والله في قلب المؤمن رضى، وسكينة وسعادة وأمن، وتفاؤل وسرور والله لو وُزِّع على أهل بلد لكفاهم، مؤمن بلا ميزة مستحيل، لك مليون ميزة عند الله عز وجل، تؤتى الحكمة، تؤتى الرضى، تؤتى السكينة، تؤتى السعادة، وأحيانا تجد بيتا متواضعا قطعة من الجنة، وبيت ثمنه ١٨٠ مليونا، وفيه أثاث بعشرة ملايين، وفيه كل الأجهزة، لكنه قطعة من الجحيم.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

والله أيها الإخوة، راجعت مرة في الإنترنت موقعا، ففوجئت أن أكثر من ٧٠٠ إنسان هم قمة النجاح انتحروا، لماذا ينتحرون ؟ كم هو الشقاء الذي عاشوه في داخلهم حتى دفعهم هذا الشقاء إلى أن ينتحروا.

الذي صمم الجسر الأول بين أوربا وآسيا في استنبول، وفي أثناء قص الشريط الحريري انتحر المهندس، وهو أحد خمسة مهندسين كبار في العالم، ألقى بنفسه من الجسر، ذهبوا إلى غرفته في الفندق، كتب في ورقة: لقد ذقت كل شيء في الحياة فلم أجد لها طعماً، فأردت أن أذوق طعم الموت.

٣ – لابد للإنسان من هدف كبير في الحياة:

ليس هناك أشقى في الحياة من إنسان بلا هدف، والمشكلة أيها الإخوة هذه النفس البشرية مصممة تصميما رائعا، مصممة لمعرفة الله، مصممة لهدف لا نهائي، فلما يختار الإنسان هدفا نهائيا محدودا، هو سعيد قبل أن يصل إليه، يعيش في الأحلام، لكن بعد أن يصل إليه تختم حياته، هذا بيته، هذه مركبته، هذه زوجته، هؤلاء أولاده، هذا دخله، كل يوم هو في دوامٍ ينغِّص حياته، يبدأ الشقاء، فما لم يكن لك هدف كبير، ما لم تسعَ لمرضاة الله فلن تنجح في الحياة.

أقسم لكم بالله إن المؤمن لا يشيخ، في سن التسعين هو شاب، وقد كان أحد العلماء منتصب القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه قائمة على أصولها في فمه، يقول لشاب في الطريق: لقد كنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدك تلميذي، فيقال له: يا سيدي، ما هذه الصحة ؟! يقول: يا بني، حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

والله أقسم لكم بالله إن الإنسان المؤمن لا يشيخ أبداً، شاب حتى الموت، طبعاً معه أسيد أوريك، معه التهاب مفاصل، مصاب بخمسين علة، لكن نفسيته نفسية شاب.

أيها الإخوة.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ

لذلك أنت أحياناً هناك آية كريمة تقرأها:

(بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس الآية: ٣٩)

ما تأويل القرآن ؟ وقوعُ الوعد والوعيد:

ما تأويل القرآن الكريم ؟ قال بعض العلماء: تأويل القرآن الكريم وقوع الوعد والوعيد، فإذا أكرمك بحياة طيبة فحياتك الطيبة تأويل هذه الآية، وإذا كان الإنسان يعاني ما يعاني فمعيشة الضنك الذي يعيشها تأويل هذه الآية.

إن الإنسان أحيانا يلاحظ في حياته الاجتماعية إنسانا مستقيما، هو في جنة.

حدثني أخ محسن كبير قال لي: كنت عند أحد أرباب الأموال، قال لي: والله حجمه أربعة آلاف مليون، هو خبير، قال لي: قد ما شكا لي همومه فبركت، ولم أستطع أن أقف، متضايق من البلد، ومن زوجته، ومن أولاده، وليس هناك سوق قوية، قال لي: بعد ساعة جاءتني امرأة محجبة، تطلب مساعدة ألف ليرة في الشهر، وهي ساكنة ببلدة إلى جانب دمشق، وهناك جمعية يعرفها، وعنده اجتماع عندهم، فبلغهم أن يتابعوا هذا الطلب، فذهبوا معه إلى البيت.

زار هذا الرجل بيت هذه المرأة، ثم قال لي: هي ساكنة في بيت تحت الدرج، القسم العالي غرفة، والأقل علوًّا مطبخ، ثم الحمام، وهناك فسحة صغيرة، قال لي: شعرنا شعورا غير طبيعي، في هذا البيت سرور وسعادة، قال لي: مستحيل أن يسكنه إنسان، الزوج نائم وهو مريض، وعنده ولدان نظيفان مرتبان، البيت فيه تفاهم، فيه ود، فيه محبة، مع أن هذا البيت متواضع، فقال لهم: سوف نعطيكم ألفين في الشهر، قال: لا، نحن تكفينا ألف ليرة ، معاش زوجي يكفينا، لكن يلزمنا ألف أجرةَ البيت، قال لي: وازنت بين أربعة آلاف مليون، الرجل الذي بركت عنده من كثرة همومه، وبين هذا البيت المتواضع، إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، لكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

المؤمن المستقيم أسعدُ إنسان على وجه الأرض:

أقول لكم أيها الإخوة، إن لم تقل: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون اتقى مني، ففي الإيمان خلل، أنت مع الله، أنت مع القوي، أنت مع الغني، أنت مع الرحيم، أنت مع المحسن، أنت مع الودود، أنت مع الشكور، مع الله لا شقاء، بل أنت في سعادة، لذلك:

فَلَيتَكَ تَحلو وَ الحَياةُ مَريـرَةٌ وَلَيتَكَ تَرضى وَالأَنامُ غِضابُ

وَلَيتَ الَّذي بَيني وَبَينَكَ عامِرٌ وَبَيني وَبَينَ العـالَمينَ خَرابُ

إذا نِلتُ مِنكَ الوُدَّ فَالكُلُّ هَيِّن وَ كُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابِ

***

أحياناً تكون الطائرة على وشك السقوط، حدث فيها خلل خطير، ومرة مضيف بالطائرة من تلاميذي، حدثني عن وضع الركاب، قال لي: شيء غير معقول إطلاقاً، البعض يضرب نفسه، والبعض ينادي بويله، والبعض يمزق ثيابه، والبعض يصرخ، والبعض ينبطح على الأرض، الوضع غير طبيعي، ثم تصورت الصحابة.

إنّ سيدنا سعد بن الربيع تفقده النبيُّ عليه الصلاة والسلام فلم يجده، فأرسل أحد الصحابة ليتفقده في ساحة المعركة، رآه مع الجرحى يئنّ، قال له: يا سعد، أنت مع الأموات أم مع الأحياء ؟ قال له: << أنا مع الأموات، ولكن بلغ رسول الله مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبي عن أمته ـ كان في قمة السعادة ـ وقُل لأصحابه: لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف>>. اقرؤوا تاريخ الصحابة، إن سبعين صحابيا لمّا قرُبَ لقاء ربهم كانوا في أعلى درجة من السعادة، الموت تحفة المؤمن، الموت عرس المؤمن.

الأمر بين أيدينا أيها الإخوة، سعادتك بيدك، سعادتك:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

والشقاء بيدك.

اتَّهم نفسك دائما بالتقصير والمعصية:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ

أعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لكُمْ، ثُمَّ أوَفِّيكُمْ، إيَّاهَا فمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ ـ دقق ـ فلا يَلُومَنَّ إلَّا نفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر الغفاري]

اتهم نفسك دائماً، هناك خلل، هناك خطأ، هناك كلمة قاسية، هناك مال غير مشروع قبضته، هناك موقف فيه كِبر، حينما ترى الشيء على خلاف ما تتمنى فاتهم نفسك، لذلك:

(فاعْلَمْ أنَّهُ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية: ١٩)

واضحة، أكمل:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ)

(سورة محمد الآية: ١٩)

الأمر بيده، فإذا جاءت الأمور على خلاف ما تتمنى فاعلمْ أن ثمة ذنبا، فابحث عن هذا الذنب.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٠٧- ٢١) : التغيير

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة لقانون التغيير:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في خلقه، والقانون اليوم قانون التغيير.

١ – القرآن مملوء بالوعود للمؤمنين بالتمكين:

أيها الإخوة، بادئ ذي بدء: القرآن الكريم طافح بوعود للمؤمنين، من هذه الوعود:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور)

٢ – لكن لماذا لسنا مُمَكَّنين في الأرض ؟

الحقيقة المرة التي هي أفضل ألف مرة من الوهم المريح أننا لسنا مستخلفين ولسنا ممكنين، ولسنا آمنين، ما تفسير ذلك ؟ آية أخرى:

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

آية أخرى:

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر الآية: ٥١)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم الآية: ٤٧)

(وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

هذا كلام خالق الأكوان، وزال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

تفسيرات واقع المسلمين المرّ:

كيف نوفّق بين واقع المسلمين المرّ ووعود رب العالمين ؟

كيف نوفق بين واقع المسلمين الذي لا يحسدون عليه، وكأن خطهم البياني وصل إلى الحضيض، كيف نوفق بين واقع المسلمين ووعود رب العالمين ؟ وكيف نفهم قوله تعالى:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ)

(سورة التوبة الآية: ١١١)

لا بد من تفسير ذلك، طبعاً كل المسلمين في العالم يطمحون إلى التغيير، يطمحون إلى النصر، يطمحون إلى العزة، يطمحون إلى أن يرجعوا قادة للأمم، لأن العرب كانوا في الجاهلية رعاة للغنم، فبفضل الإسلام أصبحوا قادة لأمم، جميع المسلمين يتمنون النصر، يتمنون العزة، يتمنون أن يكونوا أحراراً، لكن الواقع ينطق بخلاف ذلك، كيف نفسر هذا الواقع ؟

التفسير الأول: عدم عبادة الله وحده:

أيها الإخوة، أول تفسير:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور الآية: ٥٥)

فإن لم يعبد المسلمون ربهم فالله عز وجل في حلٍّ من وعوده الثلاثة، هذا أول تفسير، الدليل: عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ:

((يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

[متفق عليه]

هذا أول تفسير

التفسير الثاني: عدمُ اتباع الدين الصحيح الذي ارتضاه الله:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

أيّ دين وعد بتمكينه ؟ الدين الذي يرتضيه لنا، فإن لم نمكَّن فمعنى ذلك أن فهْمنا للدين، وتعاملنا معه، وتطبيقنا له لم يرض الله عز وجل، إذاً: لم نمكَّن، هذا التفسير الثاني.

التفسير الثالث: لم نغيِّر ما بأنفسنا:

التفسير الثالث هو الآية التي هي محور هذا الدرس:

(إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

(سورة الرعد الآية: ١١)

من الانكسار إلى النصر، من التشرذم إلى الوحدة، من الضعف إلى القوة، من الذلة إلى العزة، من أن تكون مقوداً إلى أن تكون قائداً، من أن تكون مقدرات الأمة بيد أعدائها إلى أن تكون مقدراتها بيد أصحابها.

(إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يغيّر الله ما بنا إن لم نغيّر ما بأنفسنا، لذلك المسلمون بسذاجة وبجهل ينتظرون معجزة، هم جالسون، قابعون في بيوتهم، لا يتحركون، ينظرون، يوزعون الألقاب من دون أن يعملوا، فلذلك هذا الواقع الذي ما فيه عمل، ما فيه تغيير، ما فيه صلحٌ مع الله، ما فيه حركة، ما فيه التزام، ما فيه تعاون، ما فيه مؤاثرة، ما فيه حمل همِّ المسلمين، إن لم نفعل هذا فلن يغير الله ما بنا.

(إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

إخواننا الكرام، بشكل دقيق جداً، المعصية مع الصبر، أي القهر، طريق إلى القبر، ما بعد المعصية والصبر أي القهر إلا القبر، أما الطاعة مع الصبر فطريق إلى النصر.

التفسير الرابع: عدمُ صبر المسلمين:

هل تصدقون أن في القرآن الكريم آية بها خلاص المسلمين، آية واحدة، وفيها كلمتان فقط ، في هاتين الكلمتين خلاص المسلمين في شتى بقاع الأرض، وهذا كلام رب العالمين، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

(وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ)

الطرف الآخر.

(وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

بربكم، هذا الجبل المتواضع الذي هو تلة جبل قاسيون، لو اجتمعت قوى الأرض دول العالم أن تنقله إلى مدينة درعا هل تستطيع ذلك ؟ أثبت الله بهذه الآية أن مكر أعداء الدين حجمه بحجم نقلِ جبلٍ من مكان إلى آخر.

(وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

تأتي الآية الأخرى، الآن دققوا:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية: ١٢٠)

صواريخهم، حاملات طائراتهم، أقمارهم الصناعية، الإعلام بيدهم، الأموال بيدهم، التحالفات بيدهم.

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

والله أيها الإخوة، مستحيل وألف ألفِ ألف مستحيل أن يتقي المسلمون ربهم، وأن يصبروا دون أن يرجعوا قادة للأمم، دون أن يرجعوا أعزة منتصرين، هذا قانون إلهي ، والحديث هنا عن قوانين ربنا عز وجل.

معنى: إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ

الآن ما معنى:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

تصور كرة تملكها، أنت مهيمن عليها، أنت مالك لها، أمرك نافذ فيها، إن غيرت الكرة التي تملكها، وأمرك نافذ فيها، إن غيرتها نحو الأحسن كفاك الله ما لا تستطيع، إن أقمت أمر الله فيما تستطيع كفاك ما لا تستطيع.

١ – غيِّر ما علق بنفسك التي بين جنبيك:

ما الذي تستطيعه أيها المؤمن ؟ نفسك بيدك، أقم الإسلام في نفسك، صحح عقيدتك، اصطلح مع الله، أدِ العبادات أداءً متقناً، قم في الليل فصلِّ، اقرأ القرآن، غض بصرك، اضبط لسانك، اضبط دخلك، اضبط إنفاقك، غيّر ما في نفسك، أقم الإسلام في نفسك .

٢ ـ غيِّر ما علق ببيتك من المعاصي والآثام:

وماذا تملك أيضاً ؟ بيتك، بيتك مملكة، أنت ملكها، فأنت في بيتك، عندك أولاد، وبنات وزوجة، هل أقمت الإسلام في بيتك ؟

٣ ـ كن مسلما في عملك:

شيء ثالث، ما الذي تملكه أيضاً ؟ عملك، من يمنعك في عملك أن تكون صادقاً ؟ من يمنعك في عملك أن تكون أميناً ؟ من يمنعك في عملك أن تكون مخلصاً ؟ من يمنعك في عملك أن تكون ناصحاً ؟ إذا أقمت أمر الله في نفسك، وفي بيتك، وفي عملك هذا الذي تملكه.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

هذا قانون، أتحبون أن أشرح لكم شرحا مبسطا جداً، أي: يا عبدي هل أنت مرتاح ؟ لا تغيّر لا أغيّر، هل أنت متعب ؟ غيِّر لأغيّر، هذا ملخّص الملخص، إن كنت متعباً، متألماً، مقهوراً، مضيقاً عليك فغيِّر حتى أغيّر، لو كنت في بحبوحة، وفي سعادة أنت لا تغيّر، فأنا لا أغيّر.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

لابد من التغيير الخارجي:

خلاص المسلمين في هذا، طبعاً ليس خلاصهم باستيراد مناهج غربية، ولا شرقية، ليس خلاصهم بالتغير من الخارج، يمكن أن تقيم زينة في رمضان، الآن يشيع هذا الأمرُ في البلد، يمكن أن تقتني مصحفا كبيرا تقرأ منه في التراويح، يمكن أن تزور بيت الله الحرام، يمكن أن تعمل ألف عمل، لكنه عملٌ خارجي، الله عز وجل يريد التغيير من الداخل.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

يمكن أن تعمل مليون عمل خارجي ولا يحصل التغيير، إلا إذا غيّرت ما بنفسك، إن لم يكن التغيير من ذات الإنسان، من تفكيره، من تصوراته، من عقيدته، من فهمه للقرآن، من سلوكه، من انضباطه، من وقوفه عند الحلال والحرام، من وقوفه عند ما في القرآن، من أمر ونهي فلن يغيّر الله ما بنا، هذه قاعدة مهمة.

من شروط النصر:

١ ـ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا

أيها الإخوة، هناك مثلٌ: الله عز وجل يقول:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الآية لكفت، أيّ إنسان يشعر بضيق، مقهور، مظلوم، الطرقُ أمامه مسدودة، والأبواب مغلقة، كلما طرق باباً أرتج عليه، يشعر أن القدر ضده، الله عز وجل لن يوفقه، غيّر وانظر كيف أن الله يغيّر.

(إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أيها الإخوة، الله عز وجل ما كلفنا أن نعد القوة المكافئة، قد يكون هذا فوق طاقتنا لكن كرمه اقتضى أن نعد العدة المتاحة، لذلك النصر له شرطان، كل شرط هو شرط لازم غير كافي، الشرط الأول: الإيمان الذي يترجم إلى سلوك، إلى التزام، إلى وقوف عند الحلال والحرام، الإيمان الذي يحمل صاحبه على طاعة الله، هذا الشرط الأول، لكن غير كافي، شرط لازم غير كافي.

٢ ـ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ

الشرط الثاني: الإعداد لقوله تعالى:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية: ٦٠)

الشرط الأول شرط لازم غير كافٍ، والشرط الثاني شرط لازم غير كافٍ، كيف نوضّح هذه العبارة ؟

رأس الغاز شرط لازم غير كاف، وأسطوانة الغاز وحدها شرط لازم غير كاف، أسطوانة من دون رأس لا قيمة لها، رأس من دون أسطوانة لا قيمة له، كلاهما شرط لازم غير كافٍ.

الإيمان الذي يحمل صاحبه على طاعة الله، والإعداد وفق القوة المتاحة، هذان قانونان للنصر، لذلك:

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ)

(سورة الأنفال الآية: ١٠)

(إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد الآية: ٧)

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر الآية: ٥١)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

هذا قانون التغير، غيروا حتى يغير الله ما بنا، والله ينتظرنا، والكرة في ملعبنا وسلامتنا في يدنا، وعزنا بيدنا، وانتصارنا في يدنا، فلا بد من الحركة نحو طاعة الله عز وجل، والصلح معه.

ورد في الآثار القدسية:

((أنا مالك الملوك، وملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة، فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع أكفكم ملوككم))

[رواه الطبراني عن أبي الدرداء]

التغيير فرديٌّ وجماعيٌّ:

لذلك أيها الإخوة، لو أن التغيير كان فرديا لكان الفرج فرديا، وإذا كان التغيير جماعيا يكون الفرج جماعيا، أحيان لئلا تقع في الإحباط الناس لا يغيرون، ما ذنبك أنت ؟ أنت غيّر وحدك، فالله عز وجل يغيّر ما بك، هناك نصر فردي، وفرَج فردي، وسعادة فردية، ونصر جماعي، وفرج جماعي، وسرور جماعي، هذه القضية بيدك.

عظمة هذا الدين هو دين جماعي، ودين فردي، لو أن الناس تنكروا له، ولم يطبقوا تعاليمه فطبِّق وحدك.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(سورة المائدة الآية: ١٠٥)

ورد في بعض الأحاديث:

((إِذَا رَأَيْتُمُ النّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا، وَشَبّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِي الله فِدَاكَ ؟ قَالَ: الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامّةِ))

[أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

إياك أن تيئس، الأمر بيدك، إذا كانت العودة إلى الله جماعية فهناك فرّج جماعي، وإذا كانت العودة إلى الله فردية فإنه:

(وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

هناك فرج فري، هذا الدين يصلح أن يكون دينا جماعيا، ودينا فرديا، فحينما تسعى، وتسعى، وتسعى، ولا تجد إلا آذانا صماء فانكفئ على نفسك، واصطلح مع الله ، واستقم كما أمرت، وأقم الإسلام في نفسك، وفي بيتك، وفي عملك.

والله الذي لا إله إلا هو أنْ تصطلح مع الله، وأن تستقيم على أمره، وأن تقيم الإسلام في نفسك، وفي بيتك، وفي عملك من سابع المستحيلات ألا ترى الفرج والنصر، والتوفيق والحفظ، والتأييد.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أيها الإخوة الكرام، المعركة بين حقين لا تكون، وبين حق وباطل لا تطول ، وبين باطلين لا تنتهي.

أنواع النصر:

١ – النصر التفضّلي:

لذلك هناك نصر تفضلي، النصر التفضلي كما انتصر الروم على الفرس، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ)

(سورة الروم)

هذا النصر تفضلي، وقد نسأل الله جل جلاله أن ينصرنا الله نصراً تفضلياً إن لم نستحق نصرا آخر.

٢ ـ النصر الاستحقاقي:

وهناك نصر آخر هو نصر استحقاقي، كما انتصر الصحابة الكرام في بدر.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: ١٢٣)

٣ ـ النصر الكونيّ:

وهناك نصر آخر، هو نصر كوني، إذا كان الفريقان شاردين عن الله، بعيدين عن الله، فالأقوى هو الذي ينتصر، الذي معه سلاح متطور أكثر هو الذي ينتصر، هذا نصر كوني، و هناك نصر استحقاقي، ونصر تفضلي.

٤ ـ النصر المبدئي:

ونصر مبدئي، لو أن الإنسان مات مستقيم السلوك، صحيح العقيدة، هذا منتصر، ولو قُتل في ساحة المعركة.

أنواع الجهاد:

الآن مع الجهاد:

ما ينطق بالجهاد إلا و نتصور الجهاد القتالي، مع أن في الإسلام ثلاثة أنواع من الجهاد تسبق الجهاد القتالي.

١ ـ جهاد النفس والهوى:

أول جهاد: جهاد النفس والهوى، وهذا هو الأصل، لأن المهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، الدليل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت الآية: ٦٩)

٢ ـ الجهاد الدعوي:

الجهاد الدعوي.

عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري]

قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان)

هذا الجهاد الثاني، والجهاد الأول متاح لكل مؤمن في أي زمان، وأي مكان

والجهاد الثاني متاح لكل إنسان ؛ أن ينقل ما تعلمه إلى الآخرين

(وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية: ١٠٨)

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

٣ ــ الجهاد البنائي:

ثالث جهاد هو الجهاد البنائي، الدليل:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ)

إتقان عملك جهاد، أداء واجباتك جهاد، التخفيف عن المسلمين جهاد، إذا أتقنت صنعتك فهو جهاد، إذا خدمت المواطنين فهو جهاد، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، فإذا صح جهادنا النفسي، وصح جهادنا الدعوي، وصح جهادنا البنائي كنا مستخلفين في الأرض:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ)

وما كلفنا الله أن نعد القوة المكافئة، بل كلفنا أن نعد القوة المتاحة.

الخلاصة: التوفيق في أنواع الجهاد الثلاثة هو مضمون التغيير:

الآن ينتظر إذا أتقنا الجهاد الأول، والثاني، والثالث أن ننجح في الجهاد القتالي، هذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً أيها الإخوة في قانون التغيير، نحن في وضع سيئ جداً، أمرنا ليس بيدنا، وليست كلمتنا هي العليا، وللطرف الآخر علينا ألف سبيل وسبيل، مع أن الله عز وجل يقول:

(وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

فنحن يمكن أن نرجع إلى الله، وأن نصطلح معه، وأن نتوب إليه، وأن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، وهذا هو قانون التغيير، والآية الأساسية فيه:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

وفي آية أخرى يقول تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة الأنفال)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لقانون التوبة:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في خلقه، واليوم الحديث عن قانون التوبة، لكن لابد من مقدمة:

١ – الإنسان معرَّضٌ للكسر العضوي:

عظم الإنسان أيها الإخوة معرض للكسر، لذلك ربنا جل جلاله خلق في هذا العظم خاصية رائعة جداً ؛ أنه إذا كُسر يلتئم، دور الطبيب العظمي أن يضع العظمة على أختها في مكانها الصحيح، والعظم يستيقظ الخلايا، وتلتئم هذه الكسور، وتعود إلى ما كانت عليه، لأن خلق الله كمال مطلق، وقد علم الله أن هذا الإنسان معرض أن تكسر عظامه، فهيأ آلية بالغة التعقيد في التئام الخلايا العظمية.

٢ – الإنسان معرَّضٌ للكسر المعنوي بالذنوب:

إن الله سبحانه وتعالى علِم ضعف الإنسان، وعلم أن فيه شهوات، إن لم يكن واعياً، وصاحياً، وموصولاً، ومستنيراً فقد تزل قدمه، فقد يعصي ربه، لو لم يكن هناك توبة لكان أصغر ذنب سبباً لدخول النار.

حينما يرى الإنسان أنه لا توبة، وارتكب معصية فإنه يتابع المعاصي، ويرفع مستوى المعاصي، بل يرتكب جميع المعاصي، إلى أن يستحق النار، ولولا أن الله شرع لنا التوبة لهلك معظم الناس.

لكنك إذا دخلت إلى مسجد، قد ترى فيه آلافاً مؤلفة، فاعلم علم اليقين أن معظم هؤلاء أتوا إلى الله عز وجل على إثر معالجةٍ حكيمةٍ حكيمة، ساق الله لهم بعض الشدائد فتابوا إليه وقبِلهم.

٣ – وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُم

ْإذاً: يقول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء الآية: ٢٧)

٤ – إنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ

بل الله:

(إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة)

بل يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

لكن النبي عليه الصلاة والسلام قدم لنا صورة بالغة الروعة، حينما ساق لنا حكاية قصيرة عن أعرابي ركب ناقته، وعليها طعامه وشرابه، فجلس ليستريح بعض الوقت فاستيقظ فلم يجد الناقة، وهذا الكلام يعرفه من عاش بالصحراء، إذا ضلت عنه الناقة موته محقق فبكى، ثم بكى، ثم بكى فأدركته سنة من النوم، فاستيقظ فرأى الناقة، اختل توازنه اختلال شديد، فصاح من شدة الفرح: يا رب أنا ربك وأنت عبدي، وقد نطق بكلمة الكفر لكن بعض العلماء قال: ما كل من وقع في الكفر وقع الكفر عليه، لم يعلق النبي على مقولة هذا الأعرابي.

عَن أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم]

لله أفرح بتوبة عبده من ذاك البدوي بناقته .

إذاً: لولا أن الله يعلم ضعفنا، ويعلم أن الشهوات أودعها فينا تحتاج إلى رؤية، وإلى نور، وإلى صحوة، وإلى يقظة، ففي بعض حالات الغفلة قد تزل قدم الإنسان، فهيأ الله لنا التوبة لعلاج هذه الحالة، كما هيأ خاصة في العظم أنه يلتئم، لأنه علم أن هذا العظم قد يكسر أحياناً.

التوبة:

أيها الإخوة، ولكن للتوبة قوانين، وأعظم موضوع متعلق بالقوانين بالنسبة إلى الإنسان موضوع التوبة، إنها حبل النجاة، إنها صمام الأمان، إنها تصحيح المسار، إنها أخذ بيد العبد إلى الله.

الله قريب يجيب دعاء الداعي:

ما قانون التوبة ؟ قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة الآية: ١٨٦)

فالذي يلفت النظر أن هذه الصيغة وردت أكثر من عشر مرات في كتاب الله:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة الآية: ٢٢٢)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو)

(سورة البقرة الآية: ٢١٩)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة الآية: ٢١٩)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

(سورة البقرة الآية: ١٨٩)

إلا هذه الآية الوحيدة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

استنبط بعض العلماء أنه ليس بين العبد وربه حاجز، وجاءت آية التوبة بين آيات الصيام لتبين أن الله سبحانه وتعالى مكافأة للصائم يجعله مستجاب الدعوة.

إذاً التوبة صمام الأمان، وحبل النجاة، وقارب النجاة، وتصحيح المسار وعلاج لضعف الإنسان، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أن المؤمن مذنب تواب))

[ورد في الأثر]

بل حينما تقع في مشكلة، وتدعو الله تائباً فالله يستجيب لك.

إلزامُ الله نفسَه بالتوبة على العبد التائب:

الآية الأولى أيها الإخوة، المتعلقة بموضوع التوبة يقول الله جل جلاله:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ)

ألفت نظركم إلى أن كلمة:

(إنما)

تشير إلى حقيقة ثابتة، أو إلى علاقة ثابتة.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ)

(سورة النساء الآية: ١٧)

إنما تعطي هذه الآية معنى القانون.

أما:

(عَلَى اللّهِ)

فحيثما جاءت على مضافة إلى لفظ الجلالة فتعني أن الله ألزم ذاته العلية بأن يتوب على عباده إلزاما ذاتيا، كما قال:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

(وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية: ٩)

(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود الآية: ٦)

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام الآية: ٥٤)

حيثما جاءت على مضافة إلى لفظ الجلالة فتعني أن الله جل جلاله ألزم ذاته العلية بالتوبة على عباده.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ)

(سورة النساء الآية: ١٧)

إلزامُ الله نفسَه بالتوبة على العبد التائب:

١ – الوقوع في الذنب بجهالة:

لذلك فرق كبير بين الذي يرتكب الذنب كبراً، وتأبياً، وتحدياً، وبين من يرتكب الذنب عن جهالة، أو عن ضعف، المسافة كبيرة جداً بين هذا المذنب، وبين هذا المذنب هنا جاءت الآية:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ)

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ)

(سورة النساء الآية: ١٧)

٢ – التوبة الفورية بعد الذنب:

أي: فور الذنب عقد التوبة، وكلما تأخرت التوبة يألف الإنسان هذا الذنب ، وصار من الصعب أن يتركه، بل صار أسيراً له، يقال في الدخان: إنه كان كلما الامتناع عن التدخين مبكراً بعد هذه البلوى كان الامتناع أسهل، وكلما امتد الأمد كان الامتناع أصعب.

لذلك:

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ)

أي: أحدثَ عند كل ذنب توبة، تب إلى الله.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ)

(سورة التحريم الآية: ٨)

وكل آية في القرآن الكريم فيها أمرٌ فهو أمرٌ يقتضي الوجوب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا)

(سورة التحريم الآية: ٨)

قال:

(فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

(سورة النساء الآية: ١٧)

كان عليماً أن الإنسان قد يخطئ، وقد يقع في الذنب، وكان حكيماً بأن جعل له ما يحل هذه المشكلة، وهي التوبة.

لذلك قالوا: ما أمرنا ربنا أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا، وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا.

ولكن أيها الإخوة، نتابع الآية:

لا توبة عند الاحتضار والغرغرة:

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

(سورة النساء)

التوبة عند النزع الأخير لا تقبل.

بالمناسبة: خيارك مع الإيمان خيار وقت، أكفر كفار الأرض الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية: ٣٨)

هذا فرعون الكافر الذي تحدى الإله حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس الآية: ٩٠)

الله عز وجل قال له:

(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس الآية: ٩١)

بعض العلماء في بلد آخر أفتوا فتاوى ليسوا قانعين بها، لكن إرضاءً للأقوياء، وهو على فراش الموت، وقد حدثني بهذه القصة عالم جليل في دمشق، رفع يديه هكذا عند الموت، وقال: يا رب، أنا بريء من كل فتاوى المصارف متى، قلت هذا عند الموت، وقد أحيط بك ؟

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

لذلك أن تتوب بالوقت المناسب، أو أن تتوب قبل فوات الأوان.

المعصية التي يمكن أن تتوب منها سريعاً، لذلك ينبغي أن تكون بجهالة، أما إذا كنت تعلم علم اليقين أن هذه معصية وترتكبها، وتقول: سوف أتوب، ففي الأعم الأغلب لن تستطيع أن تتوب، ما دام فيها جهالة فالقضية سهلة جداً، لأن الجهالة تعني أنه جاهل، أو مغلوب، أما المعرفة أنها معصية كبيرة ويقصد اقترافها فهذا هو التأبّي، والكِبْر.

الشرط الثاني كما قلنا قبل قليل: أن تكون التوبة قريبة من الذنب، فكلما طالت مدة التوبة بعد المعصية كانت التوبة أصعب.

قد يتوهم الإنسان أنه يمشي على الرصيف فزلت قدمه، فنزل عن الرصيف، يتوهم خطأ أنه في أي لحظة يرجع، ويمكن ألا يستطيع التوبة هذا الذي يستمرئ الذنب والمعصية، ويتابعها، قد يأتي عليه يوم لا يستطيع أن يتوب، تضعف نفسه.

التوبةُ علمٌ، وحالٌ، وعملٌ:

أيها الإخوة، نقطة دقيقة: أن التوبة لها أركان، هي علم، وحال، وعمل.

بالمناسبة: في عالم اجتماع اسمه " دورك هاين " قنن قانونا، الأصح اكتشف قانونا في تعامل الإنسان مع المحيط الخارجي، هذا القانون كلمات ثلاث: إدراك، انفعال، سلوك.

إنّ إنسانا يمشي في بستان فرأى أفعى، هذا الإدراك، لأنه أدرك أن هذه الأفعى لدغتها قاتلة، فاضطرب وانفعل، لأنه انفعل تحرك إما إلى قتلها، أو إلى الهروب منها ، هذا المثل البسيط يبين قانون العلاقة مع المحيط الخارجي، إدراك، انفعال، سلوك.

لو أن رجلاً قال لآخر: على كتفك عقرب، وبقي هادئا، مرتاحا، وقال له: شكراً ك على هذه الملاحظة، جزاك الله خيراً، وأرجو الله أن يمكنني أن أرد لك هذا الجميل، هل تعتقدون أنه فهم ماذا قال له ؟ لو فهم ما قال له لصاح صيحة، وقفز، وخلع معطفه فوراً.

إذاً: ما لم يكن انفعال كبير فليس هناك إدراك، وما لم يكن هناك حركة فليس هناك انفعال.

الندم توبة:

لذلك هذه المعاني لخصها النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((الندم توبة))

[أخرجه أحمد عن أنس]

الندم علم أحدثه، وسبب لترك هذا الذنب، يسبق الندم علم، وينتهي بعمل وهو التوبة.

فلذلك أيها الإخوة، مرة طالب قال لي: أنا لا أخاف من الله، قلت له: أنت بالذات معك حق، قال: كيف ؟ قلت له: الفلاح أحياناً يأخذ ابنه الصغير الذي عمره أربع سنوات إلى حقل القمح، يضعه بين سنابل القمح، يمر إلى جانبه ثعبان طوله عشرة أمتار، لا يخاف منه، بالعكس يضع يده عليه، لأنه لا إدراك له، ولا خوف له، والإنسان إن لم يدرك فلا يخاف.

والآن العوام يرتكبون أخطاء قاتلة في تغذيتهم أحياناً، وفي تناولهم بعض المطعومات، لأنهم جاهلون، فالإنسان متى يتوب ؟ حينما يعلم أن هذا الذنب مهلك.

كلما صغر الذنب عند المسلم كبر عند الله، وكلما كبر الذنب عند المسلم صغر عند الله، لذلك قيل: ذنب أن المنافق كالذبابة يدفعها، بينما ذنب المؤمن كالجبل الجاثم على صدره، لذلك وصف الله النفس التائبة فقال:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

العمل بعد التوبة متعلق بالماضي والحاضر والمستقبل:

أيها الإخوة، التوبة لها أركان ثلاث، علم، وحال، وعمل، العمل متعلق بثلاثة أزمنة، بالماضي، والحاضر، والمستقبل، العمل بالماضي الإصلاح.

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

(سورة النحل)

أنت نهشت عرض إنسان، وقلت: أنا تبت إلى الله، ينبغي أن تذكر صلاحه لمن تكلمت عنده بالسوء، هذا إصلاح، عليك دين، وإذا تبت فلا بد من أن يؤدى الدين.

فالعمل المتعلق بالماضي هو الإصلاح، والعمل المتعلق بالحال بالزمن الحاضر هو الإقلاع الفوري عن هذا الذنب، والعمل المتعلق بالمستقبل أن تعقد العزم على أن لا تعود إلى هذا الذنب، بالماضي إصلاح، وبالحاضر إقلاع، وبالمستقبل عزيمة أكيدة على أن تبتعد عن هذا الذنب، فالتوبة علم، و ندم، وإقلاع

التوبة يسبقها علمٌ:

لكن أيها الإخوة، أوضح لكم هذه الحقيقة:

لو أنك ـ لا سمح الله ـ ضعيف جداً في اللغة العربية، وجاء إنسان قرأ نصًّا أمامك، النص فيه مئة كلمة، ٩٨ كلمة أخطأ بتحريكها، ثم قلتَ: ما شاء الله ! ما هذا الصوت ؟! ما هذه القراءة الرائعة ؟! لأن المستمع جاهل باللغة فما كشف أخطاءه، أما لو كان متمكنا من اللغة لكشف له كل أغلاطه.
الآن مع تطبيق على هذا المثل:

متى تفكر أن تتوب ؟ حينما تعرف منهج الله، الحلال والحرام، آفات اللسان آفات القلب، آفات السمع، آفات البصر، حينما تدرس المنهج الإلهي تملك المقياس، وقبل أن تدرس المنهج الإلهي تظن أنك لم تفعل شيئاً، ومعظم الناس يقول لك: لا أشعر في الصلاة بخشوع، أنا ما عندي غلطة إطلاقاً، هذا وهمٌ، لأنه ما طلب العلم الشرعي، و عنده كسب مال حرام أحياناً، وعنده غيبة، ونميمة، ما دام أنه لم يتبع الأمر تماماً فيمكن أن يقع في أخطاء كبيرة.

فلذلك لا بد من طلب العلم حتى يكون هذا الطلب سبباً لكشف الأخطاء، يقول سيدنا عمر: << من دخل السوق من غير فقه أكل الربا شاء أم أبى >>.

نتابع هذا الموضوع إن شاء الله في لقاء قادم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٠٩- ٢١) : قانون النصر - إن الله لا يغير ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في خلقه، والقانون اليوم قانون النصر، وما من شيء يطمح إليه المسلمون كأي ينتصروا على أعدائهم، وما أكثرهم، ولكن ما لم نخضع لهذا القانون فلا يمكن أن نرى النصر.

ثلاث آيات ينضبط بها قانون النصر:

آيات ثلاث:

الآية الأولى:

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ)

(سورة الأنفال الآية: ١٠)

الصيغة صيغة قصر وحصر، لا يمكن أن يكون هناك نصر إلا من عند الله .

الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد الآية: ٧)

هذا قانون، نصر الله ثمنه أن تنصر الله أنت، بطاعته، بتعزيز مبادئه، بتقديس كتابه، بتعظيم نبيه، باتباع منهجه.

الآية الثالثة:

ثم إن الله في آية ثالثة يطمئن المسلمين فيقول:

(إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١٦٠)

هذه حقائق، طبعاً الموضوع طويل.

شروط النصر:

الشرط الأول: الإيمان:

من شروط النصر الإيمان، الإيمان الذي يحمل المؤمن على طاعة الله، وإلا فلا قيمة لهذا الإيمان، والدليل:

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِين)

(سورة الروم)

والشرط الثاني: الإعداد:

الإعداد، قال تعالى:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: ٦٠)

إذاً: النصر من عند الله حصراً، والنصر له ثمن، وهو أن تنصر الله، وإن الله إذا نصرك فلا غالب لك.

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

الإيمان الذي يحمل على طاعة الله، والإعداد الذي يعد أخذاً بالأسباب، لكن الله سبحانه وتعالى في الإعداد لم يكلفنا أن نعد القوة المكافئة، لكن كلفنا أن نعد القوة المتاحة فقط، والفرق كبير بين القوة المكافئة والقوة المتاحة، وقد يكون هذا مستحيلاً، بينما بإمكان الإنسان أن يعد القوة المتاحة.

عبادة الله بدينه الذي ارتضاه:

الآن هناك مفارقة عجيبة بين واقع المسلمين ووعود رب العالمين، المفارقة حادة، بمعنى ؛ أن المسلمين في حالة لا يحسدون عليها، في شتى أقطارهم، ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، مع أن الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ)

(سورة النور الآية: ٥٥)

نحن بكل شفافية لسنا مستخلفين في الأرض:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ)

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية: ٥٥)

ونحن أيضاً لسنا ممكّنِين في الأرض.

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور الآية: ٥٥)

ونحن لسنا آمنين، لسنا مستخلفين، ولسنا ممكنين، ولسنا آمنين، لأننا ما عبدنا الله رب العالمين، تتمة الآية:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور الآية: ٥٥)

فإذا قصر المؤمنون في عبادة الله عز وجل فالوعود الثلاثة: الاستخلاف والتمكين، والأمن تتعطل.

هذا أول تفسير للمفارقة الحادة بين واقع المسلمين، وبين وعود رب العالمين .

عندنا وعد آخر:

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

إذا تحققت جنديتك لله فأنت الغالب قطعاً، ولكن قد تكون الجندية لغير الله، فإذا كنت جندياً لله على التحقيق فالنصر حتمي:

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

فإذا كان لهم علينا ألف سبيل وسبيل فالإيمان الذي نحن عليه ليس ذلك الإيمان الذي أراده الله.

إخوتنا الكرام، القرآن فيه جواب لكل شيء، بل فيه شفاء للناس، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

السؤال: إن لم يمكنهم فمعنى ذلك أن فهمهم للدين لم يرتضيه الله لهم فهمٌ محدود، جزئي، فيه تعصب، فيه عداوة، فيه قنص، فيه دنيا، فيه مكاسب، فيه صراع، فيه تراشق تهم، فيه تعصب، لو أنك حملت همّ المسلمين لما كنت هكذا، لو أنك مخلص لرب العالمين لما جعلت المسلمين شيعاً وأطرافاً.

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية: ١٥٩)

يا محمد، ولا تكن من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً.

إنّ كل إنسان يشق صفوف المسلمين يحدث في حياتهم شرخاً، يقيم تباعداً، يفرق المسلمين عن بعضهم بعضاً، هو بالتأكيد ليس من هؤلاء الذين يستحقون النصر.

أيها الإخوة الكرام، الآية دقيقة جداً:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

فإن لم يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم فمعنى ذلك أن فهمهم للدين، وتطبيقهم له، وعرضهم للطرف الآخر لهذا الدين لم يكن ليرضي الله عز وجل.

لذلك هذا الذي قال: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق للغرب على الأقل بالمدى المنظور، ولكنني مؤمن أشد إيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين لا لأنهم أقوياء، ولكن لأن خلاص العالم في الإسلام، ولكن بشرط أن يحسنوا فهم دينهم، وأن يحسنوا تطبيقه، وأن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر، وهذه ورقة العالم لنا.

إخوتنا الكرام، العالم اليوم والطرف الآخر لا يمكن أن يقرأ كتبنا، لأن حالنا المتردي والمتخلف حجبه عن حقيقة ديننا، وهناك قول رائع لبعض العلماء: الإسلام محجوب بالمسلمين، الإسلام محجوب عن أهل الأرض بالمسلمين المتخلفين، لذلك الطرف الآخر لن يقرأ كتبنا، ولن يقف على حقيقة كتابنا، ولن يطالع سنة نبينا، ولن يقرأ تاريخنا، لأن أمامه واقعا متخلفا، وضعفًا شديدا في الوعي، وضعفًا شديدا في التعاون، وضعفًا شديدًا في حل مشكلات الأمة، فهذا الواقع السيئ يحجب الطرف الآخر عن حقيقة هذا الدين.

وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ

أيها الإخوة، شيء آخر، قال الله عز وجل:

(وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

تصور خالق السماوات والأرض يصف مكر الكفار من الشدة والفظاعة، والهول أن مكرهم يزيل الجبال، مع أن البشر جميعاً الستة آلاف مليون، مع كل ما يملكون مِن قوى لا يستطيعون أن يزيلوا هذا الجبل المتواضع من دمشق إلى درعا.

(وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

الحلُّ: وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا

لذلك الحل في كلمتين اثنتين:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية: ١٢٠)

كل التفوق التقني، والعسكري، والمادي، والاقتصادي، والإعلامي، كل هذا التفوق، وكل أنواع الأسلحة الفتاكة التي بأيدهم تتعطل لو أننا صبرنا واتقينا، أما إذا صبرنا مقهورين، وعصينا عن ضعف، أو عن كِبْر فليس بعد المعصية والصبر إلا القبر.

أيها الإخوة الكرام، ما من موضوع يتوق إليه المسلم كي يستوعبه كموضوع النصر، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم الآية: ٥)

النصر مسعد، لذلك عدم النصر إذا تتالى يشكل حالة خطيرة في الحياة، حالة اكتئاب، حالة إحباط، حالة ضياع، حالة صراع مستمر، حالة لا مبالاة، حالة عبث، أما النصر فيجعل الأمة تتماسك، وتعتز بدينها، وبإسلامها، وبماضيها، وبتاريخها، وبرجالها.

إذاً:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

تغيير ما علق بالنفس من الفساد:

شيء آخر، قال تعالى:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: ١١)

لا بد من التغيير، ولا بد من أن يبدأ التغير من النفس، لا بد من أن تجلس مع ذاتك.

أحد زعماء غطفان اسمه نعيم بن مسعود جاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام، وهو في خيمته عشية معركة الخندق أجرى حواراً مع ذاته، قال في نفسه: يا نعيم، لمَ جئت إلى هنا ؟ من أجل أن تحارب هذا الرجل ؟ ماذا فعل ؟ هل سلب مالاً ؟ هل سفك دماً ؟ هل انتهك عرضاً ؟ أين عقلك يا نعيم ؟ أيليق بك أن تفعل هذا ؟ ثم وقف، وتخطى معسكر المشركين، وانتقل إلى معسكر النبي عليه الصلاة والسلام في الليل، ودخل على رسول الله قال له: نعيم ! قال له: نعيم، قال: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت مسلماً، زعيم قبيلة، قال: مُرْني يا رسول الله: قال: أنت واحد، خذل عنا ما استطعت، وقد لا تصدقون أن المعركة الحاسمة التي قال الله عنها:

(إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب)

لكن الله سبحانه وتعالى يقول بعد هذا:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب)

نعيم بن مسعود أجرى الله على يده هذا النصر، ذهب إلى اليهود قبل أن يعرفوا أنه قد أسلم، وشككهم بقريش، وجاء إلى قريش قبل أن يعرفوا أنه أسلم، وشككهم باليهود، فنشب خلاف بين قريش وبين اليهود، ثم هبت رياح عاصفة قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وشتتهم.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب الآية: ٢٥)

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

سيدنا نعيم بن مسعود غيّر، فكّر.

إن الإنسان ينبغي ألا تستهلكه الحياة، قف، فكر، تأمل، ادرس، إلى أين أنت تسير ؟ في طريق لا يرضي الله، هل هذا المال الذي تكسبه تكسبه حلال أم حرام، هل هذه الوظيفة ترضي الله أم لا ترضي الله ؟ هل سلوك الأهل في البيت وفق منهج الله أم بخلاف منهج الله ؟ قف، تأمل:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

الجهاد بكل أنواعه:

لكن أيها الإخوة، نحن كلما قلنا: الجهاد لا يقفز إلى أذهاننا إلا الجهاد القتالي، مع أن هناك أنواع مهمة جداً من الجهاد تسبق الجهاد القتالي منها جهاد النفس والهوى.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت الآية: ٦٩)

وهذا جهاد النفس والهوى هو الذي يعد الشرط الأول للنصر، هو التغيير:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

الشيء الثاني: الجهاد الدعوي، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن ابن عمرو]

كل مسلم شاء أم أبى مكلف بالدعوة إلى الله، في حدود ما يعلم، ومع من يعرف فقط، فالدرس الذي استمعت إليه ألم يبق في ذهنك منه شيء ؟ هذا الذي بقي فيك بلّغه لمن حولك، لزوجتك، لأولادك، لأصدقائك، لزملائك، لجيرانك، لكن تلتقي فيهم في هذا الأسبوع.

((بلغوا عني ولو آية))

إذاً هذا الجهاد الدعوي، الدليل:

(وجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان)

سمى الله الجهاد الدعوي الجهاد الكبير، لأن الأصل أن تعرف الله.

ثم الجهاد البنائي:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ)

أعدوا لنا طائرة صنعت عام ١٩٦٠، يمكن أن تنطلق من بلادهم البعيدة إلى أقصى الأرض، وتعود من دون أن تتزود بالوقود، هم أعدوا لنا، لكن ماذا أعددنا لهم ؟

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ)

وجاءت (قوة) مطلقة، الإعلام قوة، الأقمار قوة، التقنية قوة، الصناعة قوة، الاكتفاء الذاتي الغذائي قوة، الثقافة قوة، العلم قوة، التعاون قوة، التناسق قوة.

(وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

لذلك أيها الإخوة، نحن إن لم نطمع بنصر استحقاقي فلعل المسلمين يلجؤون إلى الله، ويسألونه نصراً تفضلياً.

أنواع النصر:

لذلك العلماء قسموا النصر إلى:

١ – النصر الاستحقاقي:

نصر استحقاقي، سيدنا رسول الله مع أصحابه في بدر انتصروا قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: ١٢٣)

هذا نصر استحقاقي.

٢ – النصر التفضلي:

لكن الروم حينما انتصروا على الفرس انتصروا نصراً تفضلياً لأن الروم ليسوا على حق تماماً، لذلك قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة الروم)

هذا النصر الثاني.

٣ – النصر الكوني:

هناك نصر ثالث، النصر الكوني، إذا كان الطرفان لا يمتّان إلى الإيمان بصلة فالأقوى هو المنتصر، المنتصر هو الذي يملك سلاحاً متطوراً.

أحياناً طائرة قذائفها تصل إلى ٧ كيلومترات، ومدرعات قذائفها تصل إلى ٣ كيلومترات، فبإمكان طائرة واحدة أن تدمر مئة دبابة، ومئة مدرعة، فإذا لم يكن هناك إيمان في الطرفين فالمنتصر هو الأقوى، وصاحب السلاح الأقوى المتطور الفعال، صاحب التنظيم والإعداد والتدريب، وهكذا. النصر الثاني نصر تفضلي، الثالث كوني.

٤ – النصر المبدئي:

الرابع مبدئي: لو لم تنتصر انتصاراً تقليدياً، لأن الله سبحانه وتعالى كتب لك الشهادة، وأنت صحيح العقيدة، موحد ومستقيم، فأنت منتصر، ولو لم تنتصر بالمقياس التقليدي.

لذلك قالوا: الحرب بين حقين لا تكون، وبين حق وباطل لا تطول، وبين باطلين لا تنتهي.

لذلك أيها الإخوة، القانون:

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ)

(إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ)

وشرطا النصر: الإيمان والإعداد.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لقانون العزة والذِّلّة:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في خلقه، والقانون اليوم قانون العزة، وقانون الذلة، أيْ: متى يكون الإنسان عزيزاً ؟ ومتى يكون ذليلاً ؟

ثلاثة دوافع أساسية في الإنسان:

الحقيقة أيها الإخوة، أن في الإنسان دوافع ثلاث أساسية، دافع إلى الطعام والشراب حفاظاً على الفرد، ودافع إلى المرأة أو إلى الجنس الآخر حفاظاً على النوع.

فلو أن الإنسان حقق الدافع الأول والثاني، فهناك دافع ثالث سماه علماء النفس تأكيد الذات، يمكن أن تسميه الاعتزاز بالكرامة، فقد يكون الإنسان طاعماً وناعماً، لكنه يهان، فلا يحتمل هذه الإهانة، ولعل من أشد أنواع العقوبات أن يصغر الإنسان، أو أن يهان، لذلك كانت الحاجة أساسية إلى أن تكون عزيزاً، إلى أن تكون كريماً، إلى أن تكون في موضع لست مهاناً فيه، ولست ذليلاً، فما القانون في ذلك ؟

قانون العزة والكرامة:

١ – الإحسان:

الآية الكريمة:

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا)

(سورة يونس الآية:٢٦)

الإحسان مطلق:

كلمة (أحسنوا) مطلقة، فإن كان طبيبا فلا بد أن تكون محسنا، وإن كان محاميا فلا بد أن تكون محسنا، وإن كان مدرس فلا بد أن تكون محسنا، والأب محسن، والابن محسن، والطالب محسن، والموظف محسن.

أوضح مثل لهذا: إذا تأخر الموظف على عمله مرات متكررة، وتفاقمت هذه الظاهرة فقد يُسمِعه مدير الدائرة كلاماً لا يحتمل، ما الذي سبب له هذا الصغار وهذه الملاحظة القاسية ؟ تأخره، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((إياك وكل أمر يعتذر منه))

[السيوطي عن ابن عمر بسند حسن]

العمل الذي تضطر أن تعتذر عنه إياك أن تفعله، حتى تكون رافع الرأس، عزيز النفس، موفور الكرامة، وكل إنسان كائناً من كان يُسحق إذا أذيته، يكاد يخرج من جلده إذا صغرته، إذا عريته عن كل الفضائل، إذا كشفت أنه يكذب، إذا كشفت أنه يخون، فكل أنواع الصغار، والضيق، والتطامن، والشعور بالذل، والشعور بالندم، والشعور بالذنب، والشعور بعقدة النقص تتأتى من عدم الإحسان.

لّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى)

(سورة يونس الآية: ٢٦)

الجنة.

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

الحسنى هي الجنة.

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس الآية: ٢٦)

ما هي الزيادة ؟ هي النظر إلى وجه الله الكريم، وقد ورد في بعض الآثار أن المؤمنين ينظرون إلى وجه الله الكريم فيغبون خمسين ألف عام من نشوة النظرة، وقال بعضهم: وفوق هذه الزيادة ورضوان من الله أكبر، والجنة:

((مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

والنظر إلى وجه الله الكريم، ورضوان من الله أكبر،

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ)

(وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ)

(سورة يونس الآية: ٢٦)

قد يكون الإنسان مستخدَما، حاجبا، لكنه يؤدي عمله بالتمام والكمال، يشعر بعزة لا يشعرها مدير الدائرة إذا اكتُشِف أنه يختلس بعض الأموال، وتكف يده عن العمل، ويساق للتحقيق، ثم يسرّح بسبب عدم النزاهة، أو ضعف النزاهة، ومهما تكن المرتبة صغيرة تكن بها عزيزا إذا كان فيها استقامة، وفيها صدق.

لذلك بطولة الإنسان ألاّ يعمل عملاً يريد أن يعتذر منه، قيل لعمرو بن العاص: " ما بلغ من دهائك؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، فقال له سيدنا معاوية: << يا عمرو، لست بداهية، أما أنا والله فما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه >>.

حينما تؤدي واجبك بالتمام والكمال تكون رافع الرأس، عزيز النفس، موفور الكرامة، مهما يكن عملك، وبكل مكان، وبكل مجال، وبكل حقل، وبكل دائرة، وبكل مؤسسة، وبكل جامعة، وبكل حقل، حينما يؤدي الإنسان واجبه كاملاً لا يستطيع رؤساءه أن ينطقوا بكلمة تسيء إليه.

فيا أيها الإخوة، أن تشعر بكرامتك الموفورة، وبمكانتك المحفوظة شيء مريح جداً، لكن هذا يحتاج إلى جهد.

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ)

أيْ: خجل،

(وَلاَ ذِلَّةٌ)

(أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة يونس)

أيها الإخوة، مرة قرأت كتاباً صُدِّر بأدعية تركت أثراً في نفسي، من هذه الأدعية:

" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ".

أنت تعلمت شيئاً، وشرحته، وبينته، وفصلته، وأتيت بالأدلة، والشواهد والقصص، وجاء إنسان استمع إلى درسك، استوعب هذا الحديث، وطبّقه، فقطف ثماره ، والذي حفظه، وشرحه لم يطبقه، يكون هذا الذي تعلم منك أسعد منك بهذا الحديث.

" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ".

الدعاء الثاني:

" اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك ".

هناك مَظهر، مظهر صلاح، مظهر تقى، ثيابه بيضاء، معطر، سبحته في يده، متوجه إلى المسجد، شيء جميل، هذا مظهر صلاح، لكن أين كان يسهر البارحة ؟ وماذا فعل في الليل ؟

" اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك ".

" اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك ".

قد يقول الإنسان كلمة الحق، يريد بها الباطل، آخر واحدة وهي أصعبها:

" اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك " أن أكون أنا قصة، تروى بالمجالس، لذلك قال تعالى:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون الآية: ٤٤)

(وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة يونس)

٢ ـ الاستقامة:

انظر إلى وجه اللص حينما يقبض عليه، وحينما يصور مع المسروقات، انظر إلى عينيه خاشعا من الذل، لا ترى في الوجه ضياءً، ولا تألقاً، تراه مكدَّراً، عليه غبار الخيانة.

لذلك أيها الإخوة، ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان، يحيى بكرامته، يحيى بعزته.

اجعل لربك كل عز ك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزك ميت

***

أيها الإخوة:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة))

[أخرجه السيوطي وابن سعد عن أبي البجير]

إذا كان الكسب حراماً، وإذا كان هذا التسلم لهذا المكان على حساب مبادئك وقيمك، قد تكون بهذا المكان ناعماً طاعماً عزيزاً في الدنيا، لكن البطولة أن تكون يوم القيامة طاعماً ناعماً، لذلك:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة))

بين المؤمن القوي والمؤمن الضعيف:

١ – المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف:

لذلك أقول لكم أيها الإخوة: إن المؤمن القوي أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، المال قوة، والمنصب قوة، والعلم قوة، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، لماذا ؟ لأن فرص العمل الصالح متاحة للقوي مالاً، أو علماً، أو منصباً ليست متاحة لغيره، ولأن علة وجودك في الدنيا هي العمل الصالح، والعمل الصالح يحتاج إلى قوة، إلى قوة في المال، وقوة في العلم، وقوة في المنصب، لذلك ينبغي أن تكون قوياً بعلمك، أو بمالك، أو بمنصبك، ولكن:

٢ – لابد من أن تكون القوة مشروعة:

إذا كان هذا الطريق سالكاً، ولكن على حساب دينك وقيمك فأن تكون ضعيفاً أو فقيراً فهما وسامان شرف لك، إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله، وأنت محافظ على عقيدتك، وعلى إيمانك، وعلى قيمك، وعلى استقامتك، وعلى أداء عباداتك فمرحباً بالقوة، لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

إن الإنسان بالمال يملأ قلوب الناس محبة له، ينفق المال في سبيل الله، فيرضى الله عنه، ويضاعف له الأموال أضعافاً مضاعفة، وإذا كان قوياً فبجَرة قلم يحقّ حقاً، أو يبطل باطلاً، يقرّ معروفاً، ويزيل منكراً، يقرّب مخلصاً ناصحاً، ويبعد فاجراً منافقاً، فإذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله فينبغي أن تكون قوياً، أما إذا كان طريق القوة سالكاً على حساب مبادئك وقيمك ودينك فنقول: الضعف وسام شرف لك، والفقر وسام شرف لك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[أخرجه مسلم]

(وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ)

هذه الآية تعد قانون العزة والذلة، أنت باستقامتك، وبعملك الصالح، بإتقان عملك بأداء الأمانة، بالانضباط تكون عزيزاً، وحينما تقصّر في أداء واجباتك، حينما تقصّر في اختصاصك، حينما لا

تطوّر عملك تكون مفتقراً إلى خبرات جديدة، وتسيء في التعامل مع مَن حولك، ويفتضح الأمر فتصغر، وهذا شيء لا يحتمل، لذلك قال تعالى:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

(سورة فاطر الآية: ١٠)

العزة لله فطلبوها عنده:

دققوا في الدعاء الذي ندعوه جميعاً: سبحانك، إنه لا يعز من عاديت، ولا يذل من واليت، مستحيل وألف ألف مستحيل أن توالي ربك وأن تذل، أو تعادي منهج الحق وأن تعز أبداً.

حينما انتهت معركة بدر خاطب النبي كفار قريش بأسمائهم واحداً وَاحداً فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ، فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ:

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ؟ فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَسْمَعُوا، وَأَنَّى يُجِيبُوا، وَقَدْ جَيَّفُوا، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا))

[متفق عليه، واللفظ لمسلم]

أيها الإخوة، هؤلاء الذين وقفوا مع النبي في أيام الشدة أين هم الآن ؟ في أعلى عليين، أسماءهم تكتب بماء الذهب في لوحات الشرف، والذين خاصموا النبي، وردوا دعوته، وكذبوه أين هم ؟ في مزابل التاريخ.

لذلك العبرة بالنهاية، والعبرة في الخاتمة.

أيها الإخوة.

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

بالمناسبة، الله عز وجل قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ

والله الذي لا إله إلا هو مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون مؤمناً،صادقاً ،مستقيماً، محباً، مخلصاً، وألا يرفع الله لك ذكرك.

١ ـ الآية عامة:

هذه الآية مع أنها للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكن تنسحب على جميع المؤمنين، بقدر استقامتهم وإخلاصهم، المؤمن له مكانة في الدنيا، المؤمن عزيز النفس، الله عز وجل بطريقة أو بأخرى يرفع ذكر هذا الإنسان، بل الأصل في ذلك أن الله إذا أحب عبداً ألقى محبته في قلوب الخلق، إن كنت مع الله خدمك عدوك، وبجلك عدوك.

٢ ـ المستقيم يحترمه الصديق والعدوّ:

لي صديق في دائرة، وله مَن فوقه بعيد عن الدين بُعد الأرض عن السماء ، يقترف معظم المعاصي والآثام، سافر معه في مهمة، ودخلوا إلى مطعم، ولم يأتِ بمنكر من أجل هذا الموظف، وقال له: هل انتبهت إلى أننا لم نقدم شيئاً محرما على المائدة ؟ قال: بلى، قال له: من أجلك، لأن دينك صحيح، المتفلت الذي يشرب الخمر، ويرتكب المعاصي والآثام قدّر هذا المؤمن، فإكراماً له لم يضع على المائدة شيئًا محرما، لأن دينك هو الصحيح.

صدقوا أيها الإخوة، أنك إذا كنت مستقيماً فمعظم عند أعداء الدين، والأمور واضحة جداً، لكن هناك من يتاجر بالدين، هناك من يدعي أنه مؤمن، وهو ليس كذلك، هناك من يرى أن الدين طريق للدنيا، لذلك ينافق، لكن المؤمن الصادق مقدر، ومحترم حتى عند أعدائه.

الذي فعله صلاح الدين الأيوبي شيء لا يصدق مع قادة الجيوش الأوربية، ففي المعركة شيء، وبعد المعركة، أو قبلها شيء آخر، كان يعالجهم، لذلك لحقبة طويلة جداً كان الأجانب إذا قدموا إلى دمشق زاروا قبر صلاح الدين، وقدموا له آيات التبجيل والاحترام.

صدقوا ولا أبالغ، حينما تكون مخلصاً ومستقيماً تنتزع إعجاب أعدائك.

الشهيد يوسف العظمة، طبعاً أبَتْ عليه مكانته، وشهامته، ومروءته، ودينه أن يسلم البلاد، وهو يعلم علم اليقين أنه لا قِبَل له بجيش فرنسا، فلما جرت المعركة في ميسلون قُتل، وقف كبار الضباط له مبجلين، ومحترمين، وحيّوه تحية عسكرية، لأنه إنسان أبت عليه شجاعته ومروءته أن يسلم البلاد، بل ضحى بحياته من أجل أن يؤدي واجبه تجاه ربه، وتجاه أمته، لذلك قال الشاعر:

هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى كي لا يرى في جلق الأغراب

***

عظماء الأرض ماذا فعلوا ؟ ضحوا بدنياهم من أجل مبادئهم، فكانوا في أعلى عليين، هؤلاء عظماء المجتمعات.

خاتمة:

فلذلك أيها الإخوة، قضية العزة والكرامة، وقضية الذلة والمهانة بيدك، بأي مكان بأي ظرف، بأي عمل، بأي حقل، بأي جامعة، بأي مؤسسة، بأي دائرة، بأي تجارة إذا كنت مستقيماً تُحتَرَم. حدثني أخ ذهب إلى أوربا ليشتري بضاعة، لأنه ضبط نفسه عن أن ينظر إلى محاسن النساء، انتبهوا لذلك، فعاملوه معاملة خاصة.

فيا أيها الإخوة الكرام، الاستقامة الاستقامة، والإحسانَ الإحسَانَ، فهما سبب عزتك وكرامتك في الدنيا.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (١١- ٢١) : الرزق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الرزق مِن عند الله:

بادئ ذي بدء: الإنسان حريص حرص لا حدود له على حياته، وعلى رزقه ، فلذلك هذا الرزق له قوانين، هذا الرزق من عند الله.

(وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة النور)

قوانين الرزق:

ولكن لهذا الرزق قوانين، من هذه القوانين:

١ ــ الاستقامة:

(وَأَلَّو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا)

(سورة الجن)

والماء رمز الرزق:

(وَأَلَّو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا)

إذاً: الاستقامة أحد أسباب الرزق الوفير، فمن أراد أن يزيد في رزقه فليستقم على أمر الله، الآية الواضحة والعامة والرائعة هي قوله تعالى:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

(يَتَّقِ اللَّهَ)

أن يستقيموا على أمره، فأيُّ إنسان أراد أن يكون في بحبوحة فليستقم على أمر الله استقامة ترضي الله عز وجل، لا بحسب فهمك، لكن بحسب حدود الاستقامة في الشرع، وهناك أناس كثيرون يتوهمون أنهم مستقيمون، وهم ليسوا كذلك، فكلما ازددت علماً ازدادت معرفتك بالثغرات في استقامتك.

٢ – الإيمان والتقوى:

أيها الإخوة الكرام، قانون آخر:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

(سورة الأعراف)

إذاً: الإيمان بالله، والاستقامة على أمره أيضاً أحد أسباب الرزق الوفير، وكل إنسان أودع الله فيه حب المال، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية: ١٤)

كل شهوة لها قناة نظيفة تسري من خلالها:

النقطة الدقيقة: أنه ما من شهوة أودعها الله بالإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فإذا أحب الإنسان المال بحسب فطرته فهذا الحب يمكن أن يروى بقناة نظيفة ، أحب المال فيعمل في عمل مشروع فيأتيه كسب وفير يتمتع به، ويكشر الله عليه.

لذلك هذه الشهوات التي أودعها الله فينا ما أودعها فينا إلا كي نرقى إلى رب الأرض والسماوات، نرقى بها مرة صابرين، ومرة شاكرين، أية شهوة أودعها الله في الإنسان إذا ترك الجانب المحرم منها، وأخذ الجانب الحلال يرقى مرتين، يرقى بترك الجانب المحرم إلى الله صابراً، ويرقى بأخذ الجانب الحلال شاكراً إلى الله عز وجل.

هل المال نعمة أم نقمة ؟

أيها الإخوة، ما منا واحد على الإطلاق إلا ويتمنى الرزق الوفير، والمال من نعم الله الكبرى، ولكن لا بد من هذا التنويه:

المال هل هو نعمة ؟ قلت قبل قليل: من نعم الله الكبرى، الإجابة الدقيقة ليس: نعمة، وليس نقمة، ولكنه موقوف على طريقة كسبه وإنفاقه، فإن اكتسب الإنسان المال من وجه مشروع، وأنفقه في وجه مشروع فهو أكبر نعمة على الإطلاق، إن المال قوام الحياة ، ولا بد من التنويه أن المال قوة كبيرة في الحياة، لذلك يجب على كل مسلم أن يكون مكتفياً، وإن أمكن أن يكون غنياً، لماذا ؟ لأن خياراته في العمل الصالح تغدو كثيرة جداً، ولأن علة وجودك في الأرض هو العمل الصالح، ولأن

الإنسان حينما يأتيه ملك الموت لا يندم إلا على تقصيره بالعمل الصالح، كلما كنت قوياً أكثر كانت خياراتك في العمل الصالح أكثر.

المؤمن الغني له من طرق العمل الصالح ما ليس للمؤمن الفقير:

الآن الإنسان الميسور يمكن أن يزوج شبابا، أن يفتح بيوت، أن يرعى أرامل، أن يرعى أيتاما، أن يوفر فرص عمل، فالإنسان كلما كان أقوى كانت خياراته في الأعمال الصالحة أوسع.

فلذلك ينبغي أن تكون قوياً من ناحية المال مثلاً، لكن قد يكون طريق القوة المالية محفوفا بالمخاطر، وفي بعض الأقوال اللطيفة: الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة .

قد يأخذ إنسان أموال الناس، ويغامر بها فيقع تحت ديون طائلة يسحق، نقول لمثل هذا الإنسان: الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة، أما إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله فينبغي أن تكون غنياً إنسان لأن فرص عمل الصالح للأغنياء لا تعد ولا تحصى.

والله أيها الإخوة، لا يُغبط إلا غني مؤمن، بإمكانه بماله أن يصل إلى أعلى درجات الجنة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا حَسَدَ إِلاّ في اثْنَتَيْنِ: وَرَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَارِ رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَارِ))

[متفق عليه]

بالمال تملأ قلوب الناس فرحاً، بالمال تطعم الجائعين، تكسو العراة، بالمال ترأب الصدع، توفق بين الناس، بالمال تزوج الشباب، بالمال تسعى بتزويج الفتيات، والأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، بل إن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، دقق في أن علة وجودك في الأرض العمل الصالح، والعمل الصالح قد يحتاج إلى المال.

لذلك هناك كلمة لصحابي جليل: << حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي >>، هذا الصحابي الجليل رسم للمال هدفين واضحين، أصون به عرضي، أطعم أولادي، أكسو زوجتي، أملأ البيت فرحاً بتلبية ما يحتاجون، والمال له وظيفة أخروية كبيرة جداً، وأتقرب به إلى ربي، بل إن المؤمن يسعده العطاء لا الأخذ، فإذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله فينبغي أن تكون غنياً، لأن فرص العمل الصالح للغني لا تعد ولا تحصى، أما إذا كان طريق الغنى سالكاً على حساب مبادئك ودينك فالفقر وسام شرف لك.

إذاً أول قانون:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا)

القانون الثاني:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

٣ ــ الاستغفار:

الآن: أحد أسباب وفرة الرزق الاستغفار، طالبوني بالدليل، قال تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا)

(سورة نوح)

فلذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية: ٣٣)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعذب أمة محمد عليه الصلاة والسلام وسنة النبي بعد وفاته قائمة في حياته

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ)

أي سنتك مطبقة في حياتهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في أفراحهم، في أتراحهم، في حلهم، في ترحالهم، في كل شؤون حياتهم.

الآن:

(وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال)

أنت في بحبوحتين، بحبوحة الاستغفار، وبحبوحة تطبيق منهج رسول الله، إذاً :

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا)

٤ ــ الصلاة والذِّكر:

الآن:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا)

(سورة طه الآية: ١٣٢)

استنبط العلماء من هذه الآية أن البيت الذي فيه صلوات تؤدى، وأن المحل التجاري الذي يؤدي أفراده الصلوات الخمس، والذي يقام فيه منهج الله، الصلاة والذكر أحد أسباب جلب الرزق.

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا)
(نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

(سورة طه)

التقتير الإلهي تقتير تأديب لا تقتير عجز:

أيها الإخوة، لابد أن أوضح حقيقة خطيرة جداً: أن أيّ تقنين إلهي هو تقنين تأديب لا تقنين عجز، إن أي تقنين إلهي إنْ كان في الأمطار، إن كان في الأرزاق، إن كان في المحاصيل، إن كان في النبات أي تقنين إلهي هو تقنين تأديب لا تقنين عجز، لقول الله جل جلاله:

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

إذاً: أي تقنين تقنينُ تأديب لا تقنين عجز، أما حينما يقنن الإنسان ففي الأعم الأغلب يقنن تقنين عجز، أما إلهنا جل جلاله إذا قنن تقنينه تقنين تأديب.

الغنى والفقر بحكمة الله

لكن أحياناً لحكمة بالغة، لأن الله يعلم ما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وقد قيل: علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لأن الله وحده يعلم ما الذي سيكون لو كنت غنياً، وما الذي سيكون إن كنت فقيراً، فلذلك هناك حكمة بالغةٌ من أن هذا الإنسان أراد الله له دخلاً محدوداً، وهذا إنسان أراد له دخلاً غير محدود، لأن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه.

إذاً: لأن الله يعلم ما سيكون فقد يختار لكل واحد منا رزقاً يعينه على أن يصل إلى دار السلام بسلام، لذلك في بعض الأحاديث:

((فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عليّ رضي الله عنه]

هو خُلق للجنة، فإن كان الدخل المحدود يمكن أن يكون سبباً أقوى في بلوغ الجنة يجعل الله هذا الإنسان ذا دخل محدود.

أما إذا كان الدخل غير المحدود سبب للتفلت والانغماس بالملذات، ثم المعاصي والآثام يأتي هذا الحديث الذي أسميه قاصمة الظهر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة]

عدّ النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً من المصائب.

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة]

إذاً: لأن الله علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون يختار لعبده نوعاً من الرزق، فالمؤمن الصادق يرضى عن الله.

إن إنسانا كان يطوف حول الكعبة وهو يقول: " يا رب، هل أنت راضٍ عني، ورآه الإمام الشافعي قال: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال: سبحان الله ! من أنت ؟ قال: أنا محمد بن إدريس، قال: كيف أرضى عن الله وأنا أتمنى رضاه ؟ فقال له: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".

فالمؤمن الصادق يرضى عن الله، ولو كان ذا دخل محدود.

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسلم]

إذاً: يجب أن تعلم علم اليقين أنك تدعو الله فيجب أن تستقيم، وتؤمن، وتتقي، لكن أحياناً هناك حكمة بالغة بالغة من الدخل الذي قدره الله لك.

إخوتنا الكرام، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

[مسلم]

لذلك: عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي]

سأل مِلِكٌ وزيره: مَن الملك ؟ قال له: أنت، قال: " لا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، وزوجة ترضيه، ورزق يكفيه، إنه عن إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه ".

لذلك قد يكون الكفاف وضعاً مثالياً للمؤمن، الكفاف لا يعني أنك فقير، ولا يعني أنك مترف، لذلك قالوا: خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هَمًّا، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر.

لذلك أسباب الرزق أحياناً صلة الرحم، أسباب الرزق أداء الصلوات، أسباب الرزق الإيمان والاستقامة على أمر الله، أسباب الرزق الإيمان والتقوى، أسباب الرزق الاستغفار، هذه كلها أسباب للرزق، لكن أريد أن آبين لكم حقيقة:

لن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها:

هناك منطقة مشهورة بالتفاح، لو دخلنا إلى البستان الرابع من بداية هذه المنطقة ، وتجولنا فيه، ورأينا الشجرة الثامنة، والغصن الثالث، والتفاحة العاشرة، هذه التفاحة لك، من وقت أن خلقها الله هي لك، وهذا معنى الرزق المقسوم، أما وصولها إليك فباختيارك، هذه التفاحة لك، يمكن أن تصل إليك هدية، يمكن أن تصل إليك ضيافة، يمكن أن تصل إليك صدقة، يمكن أن تصل إليك تسولاً، يمكن أن تصل إليك سرقة، يمكن أن تصل إليك شراءً، الشراء طريقة، والسرقة طريقة، والتسول طريقة، والصدقة طريقة، لذلك هي لك، ولكن طريقة وصولها إليك باختيارك، من هنا ورد في الحديث الشريف:

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم))

[أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة]

اختر حرفة شريفة، لأن الرزق هو هو، وما عند الله ما ينال بمعصية الله.

((من حاول أمرا بمعصية الله كان أبعد له مما رجا، وأقرب مما يتقي))

[رواه أبو نعيم عن أنس رضي الله عنه]

فلذلك أيها الإخوة، هذه مبادئ متعلقة الرزق، الاستقامة، العمل الصالح الإيمان، التقوى، الاستغفار، صلة الرحم، إقامة الصلوات، هذه أسباب الرزق، والرزق مقسوم بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يسوق لك الرزق المناسب، فليس في الإمكان أبدع مما كان، والقاعدة اللطيفة في حكم ابن عطاء الله السكندري: " ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء "، والمؤمن راضٍ عن الله يقول: يا رب، احفظني وارزقني، ارزقني طيباً واستعملني صالحاً.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (١٢- ٢١) : الولاء والبراء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الولاء والبراء:

١ – الولاء والبراء جزءٌ من الدِّين:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في كتابه، والقانون اليوم قانون الولاء والبراء، الولاء والبراء جزء كبير من الدين.

٢ – من مقتضيات الولاء والبراء الدفاع والنصرة:

لابد أن أوضِّح هذا المعنى:

هناك ابن له ولاء لأبيه، لمّا نقلت له قصة لا تليق بأبيه فكر لعلها افتريت عليه، لأن له ولاء لأبيه، يفكر لعلها مبالغة، وليست كما هي، يفكر أن يدافع عنه، يفكر أن يسأل أباه، لأن له ولاء فيحاول أن يتأكد، ويتحقق، ويدافع، ويسأل، لكن لو أن إنسانا يعادي إنسانا فأقلُّ خبرٍ سيئ يصدقه بلا دليل، لأن هذا الإنسان الثاني ليس له ولاء للأول.

حينما توالي الله ورسوله تنفي كل قصة لا تليق بكمال الله دون أن تشعر، وإذا سمعتَ افتراء وشبهة تحاول أن تبحث وتتأكد، لذلك الولاء أصل في الدين.

حينما توالي الله ورسوله وتوالي المؤمنين فإنه يسعدك ما يسعدهم، ويؤلمك ما يؤلمهم، تدافع عنهم، تحاول أن ترى بعض المبررات لأعمالهم، تحاول أن تعتذر عنهم، تحسن بهم الظن، أما العدو فيبحث عن المثالب، والأخطاء، ويكبر، ويشهر، ويروج.

لذلك قد ينطلق المؤمن من الولاء إلى آلاف التصرفات، كمثل إنسان ذهب إلى بلاد الغرب، التي فيها إيجابيات، وفيها سلبيات، إذا كان ولاءه ضعيفا جداً لأمته ولدينه فكل الميزات في بلاد الغرب يروّج لها، ويتحدث عنها، وأمّا المثالب والعيوب والسلبيات والأخطاء والجرائم والإباحية فيتعامى عنها ولا يذكرها، لأن ولاءه لهم، بينما المؤمن تقلقه سلبيات الغرب، تقلقه إباحيتهم، تقلقه عدوانهم على بقية الشعوب، فيتألم أشد الألم، أما إذا رأى في بلده سلبيات فيتألم، ويحاول أن يصلحها، يحاول أن يقيمها، يحاول أن يبحث عن الأسباب التي أدت إليها، والأصل في الحياة ولاءك وبراءك.

٣ – الولاء للحق مهما كانت الظروف:

الإنسان الذي هو عدو للدين ينبغي ألا تكون ولياً له، لأنه يرى الإباحية في بلاد الغرب، يرى التجاوزات، يرى الشذوذ، يرى ما يفعله هؤلاء الأقوياء بشعوب الأرض فلا يتألم أبداً، بل يشيد بصناعتهم، وبنظافتهم، ونظامهم، وأناقتهم، وينسى جرائمهم، إذاً: هذا والاهم، فإن واليتهم فأنت منهم، ومن هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً.

بشكل أو بآخر ينبغي أن توالي المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وينبغي أن تتبرأ من المشركين، ولو كانوا أغنياء وأقوياء.

آيات الولاء والبراء في القرآن الكريم:

الآية الأولى:

أيها الإخوة، الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

(سورة التوبة)

أنت مع الحق أينما كان، فلذلك ما هي العصبية ؟ أنت تنحاز انحيازاً أعمى

أوضح هذه المسالة بالأمثلة:

لك ابن أخطأ، هناك إنسان ينحاز إلى ابنه على خطئه، أو ابن ينحاز إلى أبيه على خطئه، أما المؤمن فولاءه للحق، فإذا أخطأ ابنه يعنفه أشد التعنيف، ولو كان ابنه، وإذا أصاب إنسان آخر قد يكون له نداً، وهو مع الحق، لذلك قضية الحق والباطل قضية دقيقة جداً.

مرة أبو حنيفة النعمان كان عند المنصور، وكان عند المنصور قاضٍ على عداوة مع أبي حنيفة، فأراد هذا القاضي أن يوقع أبا حنيفة في حرج شديد، قال له: إذا أمرني الخليفة بقتل امرئ أأقتله أم أتريث فلعله مظلوم ؟ ماذا يقول له ؟ إذا قال له: اقتله، فقد أغضب الله، وإذا قال له: لا ترد عليه، فقد أغضب الخليفة، قال له: الخليفة على الحق أم على الباطل ؟ رد له الكرة قال له: على الحق، قال له: كن مع الحق.

فالإنسان أحياناً يوالي المؤمنين، وإذا والى المؤمنين ارتقى عند رب العالمين، وهذا الذي يتخلى عن أمته ليس مواليا لها.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان في الطائف، وبالغ أهل الطائف في إيذائه، ماذا قال ؟ اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحدك.

الذي أريد أن أقوله لكم باختصار: إن الإنسان إذا كان مع الحق والى المؤمنين، ووالى المسلمين، يؤلمه ما يؤلمهم، ويسعده ما يسعدهم، يعتذر عنهم أحياناً، والقوى المعادية للدين تخطط لهم، تشتتهم، تفرقهم، تفرق جمعهم، تشوه صورتهم، هو يتألم أشد الألم، لا يصدق هذه الكلمات، يبحث عن تبرير، يبحث عن تفسير آخر.

الآية الثانية:

أيها الإخوة:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

(سورة الممتحنة الآية: ٤)

إذاً: ينبغي أن يكون لك الولاء للمؤمنين، وغير المؤمن يمكن أن تقيم معه علاقة عمل ما فيها شيء، والحياة هكذا، أنت في مدرسة، أنت في معمل، في مستشفى، في جامعة، في وظيفة، قد يكون مَن حولك ليسوا كما تتمنى، علاقات العمل ما فيها شيء، لكن الولاء والبراء يظهر في العلاقات الحميمة، ففي شركة اندماجية يجب أن يكون الشريك على شاكلتك، له ولاء للمؤمنين، رحلة طويلة مشتركة، ففي العلاقات الحميمة ينبغي ألا تكون بين المؤمن وبين غير المؤمن.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه أحمد، وأبو داود والترمذي]

لابد من التعامل بالعاطفة العميقة لا بالعاطفة السطحية:

اسأل نفسك هذا السؤال: أيقلقك وضع المسلمين ؟ أحيان لا يحتمل الإنسان ما يرى في الأخبار فيتألم، فألمه هذا علامة ولائه وبرائه، وأحياناً يذهب إلى بلاد بعيدة فيرى الأناقة والجمال والنظام، والفخامة والرفاف والترف، لكن يرى برؤية أعمى أن هذا البناء الفخم، وأن هذا الغنى الفاحش بسبب ثروات الشعوب الضعيفة، وهناك ظلم في العالم ظلم شديد جداً

لو أن إنسانا دخل بيت شخص هو تاجر مخدرات فرضاً ـ لا سمح الله ـ سيجد فخامة كبيرة، لكن ولاءه للحق يجعله يحتقر هذا البيت الذي بني على إفساد أخلاق الشباب.

أحيانا يدخل الرجلُ بيتا متواضعا جداً، صاحبه موظف مستقيم، له استقامته وعمله الطيب، فيحبه ويقدره على ضعف بيته، وعلى بساطة بيته، يرى استقامته، ويرى للناس، لذلك قالوا: عندنا عاطفة سطحية، وعندنا عاطفة عميقة، المؤمن يتعامل بالعاطفة العميقة.

قد تجد بلاد غنية جداً، بنيتْ على نهب ثروات الشعوب، لذلك هذه البيوت على أناقتها ونظامها وتفوقها وجمالها المؤمن الصادق لا يتأثر بها، هي على الشبكية فقط.

إنّ ملهى من بعض الملاهي في بعض البلاد العربية كلفت الصالة الواحدة ٣٠ مليون دولار، رخام، وتزيينات، وثريات، وقد تدخل إلى جامعة متواضعة جداً فتجده بناء متداعيا منذ خمسين سنة، لكن هذه الجامعة تخرّج أطباء، وعلماء، ومدرسين، واختصاصين، أما دار اللهو ودار القمار فتخرّج مجرمين منتحرين، فالبطولة ألا تكون العاطفة سطحية، أن تكون العاطفة عميقة.

أيها الإخوة، مرة قال لي شخص: أنا عملي قذر، لكن مكتبه فخم جداً، فخامته تفوق حد الخيال، ولحكمة بالغةٍ بالغة في اليوم التالي اضطررت أن أصلح مركبتي في مكان بأطراف المدينة، والمطر شديد، والوحل، وصاحب المحل انبطح تحت المركبة، وأصلح المركبة، وأخذ أجرا متواضعا، وأتقن عمله، فقلت في نفسي: والله الرجل الثاني عمله نظيف مع أنه على الشبكية النظافة والأناقة بالمكتب الأول، ومحل لإصلاح السيارات، والمطر شديد والوحل، ويرتدي ثيابا متواضعة جداً، كان لونها أزرق سابقاً، ولم يرَ لونها الآن من والوحل والزيت والشحم، قلت: والله هذا عمله نظيف.

فأنت بطولتك أن تخترق المظاهر، بيت مغتصب، ولو كان فخما، صاحبه آثم، وإنسان بيته متواضع جداً، لأنه ما أكل مالا حراما أبداً، هذا معه وسام شرف.

كلما تعمقت في الدين كان ولاءك لأهل الحق وللمؤمنين، ولو كانوا فقراء، وكلما ضعف إيمان المؤمن والى أهل الدنيا وعظّمهم، ويتعامى عن أخطائهم، ويثني عليهم ثناءً غير صحيح، فالبطولة ولاءك وبراءك، لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ...))

[البخاري]

بالمناسبة آذنته بالحرب في القرآن وردت في آية الربا:

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة الآية: ٢٧٩)

في الحديث وردت:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ...))

الآية الثالثة:

إخواننا الكرام، آية أخرى دقيقة جداً:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)

الآن:

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ)

(سورة الأنفال الآية: ٧٢)

الولاء للمؤمنين يقتضي خدمتهم والتحرك نحوهم:

ما لم تتحرك، ما لم تتخذ موقف، ما لم تهاجر، ما لم تفعل شيئاً، ما لم تلتزم فإيمانك لا قيمة له:

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ)

أوضح مثلٍ: إنسان ذهب إلى بلاد بعيدة، وأخذ الجنسية، واستقر، ونسي أمته، هو لحم كتفه من خير بلده، علمه لأعداء المسلمين، الذي عنده ولاء لأمته ولدينه يريد أن يرد لأمته جميلها، فيعود إلى بلده، ويعالج المرضى المؤمنين.

فلذلك:

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ)

(وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

الآن دققوا:

(وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)

(سورة الأنفال الآية: ٧٣)

يتعاونون، يتناصرون، يسهرون الليل، يخططون، يتعاونون، وتجد تحالفات كلها ظالمة، تحالفات من أجل اغتصاب الشعوب، من أجل قهر الشعوب ك

(وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)

لكن أدق شيء في الآية:

(إِلاَّ تَفْعَلُوهُ)

(سورة الأنفال الآية: ٧٣)

هذه الهاء ضمير غائب على من تعود ؟

(إِلاَّ تَفْعَلُوهُ)

يعني إن لم تؤمنوا، وإن لم تهاجروا، وإن لم تجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، وإن لم تؤووا، وتنصروا، إن لم يكن لكم ولاء للمؤمنين.

(إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

(سورة الأنفال)

هذه الهاء تعود على الآية السابقة بأكملها:

(إِلاَّ تَفْعَلُوهُ)

إذا ما آمنت وهاجرت، وجاهدت بمالك، ونفسك، وآويت، ونصرت:

(تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

الآن: ما سبب ضعف المسلمين ؟ تفرقهم، عدوهم ينال منهم واحداً واحداً، ينال من جهة، والكل يتفرج، ينال الثاني والكل يتفرج، إلى أن يأتي عليهم جميعاً، ولا أحد يتحرك لكن المؤمنين كما قال عليه الصلاة والسلام:

((سلمهم واحدة، وحربهم واحدة))

[ورد في الأثر]

(وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

(سورة الحجرات الآية: ٩)

الولاء للمؤمنين يقتضي الانتماء للمجموع:

هناك انتماء إلى المجموع، وأكبر مرض يعاني منه المسلمون الانتماء الفردي، حيث كل إنسان يقول: أنا ما عندي مشكلة، لكن في الحقيقة هناك مشكلة كبيرة عند بعض الناس دون أن نفكر في حلها.

أوضح مثلٍ:

احترق بيت في شارع، هذه البيوت كلها إن لم تخرج لإطفاء الحَريق فالحريق سيصل إليها بيتاً بيتاً.

نحن بحاجة إلى الولاء، أن تقول: أنا لست بخير إذا كان المسلمون ليسوا بخير، أن تشعر أن ما يصيب المسلمين يصيبك.

أحيانا لا يكون عند الإنسان مشكلة، بلده والحمد لله آمِنٌ، لكن هل نحن مرتاحون لما يجري في فلسطين ؟ في العراق ؟ في الصومال مثلاً ؟ في السودان ؟ هناك أخطار تتهدد هذه البلاد، فعلامة ولاءك وبرائك أقلّ شيء أنْ تتألم، وأقلّ شيء أن تدعو لهم، وأقلّ شيء أن تساعدهم بمالك إن أمكنك، هذا هو الولاء والبراء.

أتمنى أن تكون هذه الأفكار واضحة، لأنك توالي الله عز وجل، تحمل همّ المؤمنين، يفرحك إذا كانوا في سعادة، يؤلمك إذا كانوا في شقاء، تعجب بوحدتهم، تتألم لفرقتهم، تخفف من آلامهم، تحمل بعض همومهم، هذا هو الولاء والبراء، الولاء والبراء جزء من الدين.

أيها الإخوة، يقول الله عز وجل:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)

(سورة التوبة الآية: ٧١)

والله علامة إيمانك أينما ذهبت، إلى أين مكان في العالم ترى المؤمن فتحبه، وكأنه أقرب الناس إليك.

مرة سمعت محاضرة من عالم أصله من السند، مقيم بجنوب إفريقية، أحمد ديدات، لا يتكلم العربية، أقسم لكم بالله شعرت أنه أقرب إلي مِن أقرب الناس إلي، هذا الولاء والبراء، أينما سافرت المؤمن تحبه، تجده سمته حسنا، متواضعا، غيورا على هذا الدين، يحب أن يقدم شيئًا، يخفف من آلام المسلمين، هذا هو الولاء والبراء، وما لم تتمتع هذا بالولاء والبراء ففي الإيمان خلل كبير.

لذلك:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)
(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة التوبة)

أنا أريد أن ألخص لكم معنى الولاء: المجموع لواحد، والواحد للمجموع.

زبدة القول وملخَّصُه:

مرة طُرح شعار، والقصة قديمة، فأنا أعجبني هذا الشعار، الشعار هو: لسنا وحدنا في المعركة، أنا عدّلته، وقلت: لست وحدك أيها المؤمن في الحياة، هناك ألف أخٍ يعاونك، ألف أخ ينجدك، ألف أخ يقدم لك شيء، ألف أخ ينصحك، ألف أخ يأخذ بيدك، لست وحدك في الحياة، وما لم نكن كذلك فالله عز وجل لا ينظر إلينا.

مرة صحابي تخلف عن رسول الله، النبي سأل عنه، لكن أحدَهم طعن فيه، قال له: شغله بستانه، فقام أحد الصحابة قال: لا والله يا رسول الله، والله قد تخلف عنك أناس ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، فابتسم النبي فرحاً بهذا الموقف.

دافع عن أخيك، وهناك حالات كثيرة الآن من هذا القبيل، فإذا ذُكِر أخ لك بسوء لا تبق ساكتًا، وأنت تعرفه أن الأمرَ خلاف ذلك، فدافعْ عنه.

الآن هناك اتجاهات منها الانتماء الفردي، ليس الرجل مستعدا أن يقول كلمة، ما ولا أن يدافع عن رأيه إطلاقاً، حتى لا يكون عليه مأخذ.

إذا اتُّهم المؤمن بشيء هو بريء، وأنت تعرف بريء، فدافعْ عنه، هذا هو الولاء والبراء، وعلامة إيمانك ولاءك وبرائك، وعلامة ضعف الإيمان ضعف الولاء والبراء.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

قانون الفوز والنجاح :

أيها الأخوة الكرام ، مع درس جديد من دروس سنن الله في كتابه الكريم ، والقانون اليوم قانون الفوز والنجاح .

أولاً ما من شخص على وجه الأرض إلا ويتمنى النجاح ، بكل أنواعه ، هناك نجاح في صحته ، نجاح في زواجه ، نجاح في عمله ، نجاح في تفوقه ، النجاح محبب ولا شيء يسعد الإنسان كالنجاح ، ولكن المشكلة أن الناس متفاوتون في فهم النجاح ، مثلاً :

إنسان اشترى أرضاً ، ثم نُظمت تنظيماً جديداً فارتفعت مئة ضعف ، يظن نفسه ملك الدنيا ، تجتاحه مشاعر فرح لا توصف ، مبلغه كان مليون صار مئة مليون ، هذا نجاح ، هناك نجاح علمي : نال شهادة عليا من أرقى الجامعات في العالم ، وهو في بلده يحمل هذا الاختصاص النادر ، له دخل فلكي ، إنسان أحياناً يأخذ وكالة عليها بيع يومي بالملايين أرباحه في اليوم مليون ، وكالة حصرية ، دخل فلكي .

أحياناً يسافر يطلع على أطراف الدنيا ، أحياناً يتزوج يوفق في زواجه ، النجاحات لا تعدّ ولا تحصى ، ولكن النجاح في القرآن الكريم ما هو ؟ في موت ، لو فرضنا حققت أكبر نجاح إداري ، تسلمت أعلى منصب بالعالم هذا نجاح ، بأي بلد إنسان صار وزيراً ، الوزير له مكانة ، له مركبتان أو ثلاثة ، له دخل ، له سفر ، تعويضات ، شأن ، تصريحات ، الوزارة منصب ونجاح ، هناك نجاح اقتصادي ، مؤسسته ناجحة جداً ، هناك نجاح إداري ، هناك نجاح صحي ، يتمتع بلياقة صحية تفوق حدّ الخيال ، هناك نجاح أسري ، نجاح بتربية أولاده ربى أولاده ، أولاده أطباء ومهندسون ، كلهم قمم بالتفوق .

الفائز من نجح في تطبيق منهج الله عز وجل :

يا ترى ما هو النجاح ؟ ما هو النجاح الذي تقطف ثماره بعد الموت ؟ .

إخوانا الكرام ، بشكل أو بآخر الموت ينهي كل شيء ، قلت مرة : ثم ماذا ؟ صار حجمه المالي ٩٠ ملياراً (بلكيت) ، ثم ماذا ؟ هناك موت ، أحياناً تدخل لبيوت يحار العقل في جمالها ، في أناقتها ،

في تزييناتها ، في قطع الأثاث ، وفي القطع الفنية ، وفي اللوحات الزيتية ، والمرافق العامة ، والأجهزة الكهربائية ، والستائر ، والإطلالات ، أحياناً تزور مزرعة كبار المهندسين صمموا هذا الحقل الأخضر ، وهذه الطوابق العليا ، والشرفات ، والمسابح ، والإطار من الأشجار المثمرة ، والله هناك أشياء تذهب بالألباب في الدنيا ، الذي عنده مزرعة ناجح نجاحاً كبيراً ، الذي عنده بيت فخم جداً ، الذي عنده مركبة ثمنها ١٢ مليون الآن ، فعلاً فيها ميزات تفوق حدّ الخيال ، كلها نجاحات ، لكن ما النجاح الذي أراده الله ؟ النجاح في القرآن ، عبّر القرآن عنه بالفوز ، مثلاً :

(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٨٥)

الدنيا تغر وتضر وتمر :

((خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرَيْها هَمّا))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[الديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

بطولة الإنسان أن تتطابق موازين النجاح عنده مع موازين القرآن الكريم :

أيها الأخوة ، أتحبون أن أقول لكم ما هي البطولة ؟ أن تأتي مقاييس النجاح عندك كمقاييس القرآن، أن تتطابق موازين النجاح عندك مع موازين القرآن ، قد تجد إنساناً نجح مع ربه ، عرفه ، استقام على أمره ، أطاعه ، أدى العبادات ، تفانى في خدمة خلقه ، أنفق ماله في الخير ، ترك مشاريع ضخمة جداً ، ترك مؤلفات ، ترك مشاريع ، ترك مؤسسات ، اسمه على كل لسان ، هذا نجاح ، نجاح في الآخرة ، مَتَاعُ هذا نجاح بمقاييس النجاح

(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ الْغُرُورِ)

معنى

(مَتَاعُ الْغُرُورِ)

أي الشخص إذا جلس في حوض مائي بماء فاتر مريح ، لكن إذا جلس ساعتين ثلاث يصبح طبيباً؟ يصبح تاجراً ؟ يفهم كتاباً وهو بهذا الحوض ؟ هذه المتعة الآنية ليس لها أثر مستقبلي ، كلمة متاع أي متعة آنية انقضت ، ليس لها أثر مستقبلي ، لكن هناك أعمال بعد عشرات السنين تستمتع بالنتائج.

فالبطولة أن يكون لك عمل له أثر مستقبلي ، إنسان أحياناً بالمقاييس المادية يأخذ شهادة عليا بالطب، يعمل اختصاصاً نادراً يرجع بعد عشر سنوات معه بورد ، يفتح عيادة وهو دقيق في

معالجته ، والناس يثقون به يصبح عنده خمسين شخصاً ، كل شخص ألف الحد الأدنى ، هناك تخطيط ، إيكو ، خمسين ضرب خمسة ربع مليون كل يوم ، هذه الشهادة العليا سببت دخلاً مستمراً ومتنامياً ، إذاً عندما درس ؛ هذه الدراسة لها أثر مستقبلي .

أما إنسان يلعب بالنرد للساعة الثالثة بالليل ، وعنده تفوق عال فيه ، وإذا كان نجح بهذه اللعبة ؟ ما لها أثر مستقبلي أبداً ، متعة آنية .

فهذه البطولة إما أن تستمتع بمتعة آنية تنقضي مع انقضاء وقتها ، أو أن تعمل عملاً له أثر مستقبلي.

العاقل من أطاع الله و رسوله :

نريد أن نرى في القرآن الكريم ما هو الفوز ؟ يقول الله عز وجل :

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

لذلك مرّ النبي الكريم بقبر ، قال :

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[رواه ابن المبارك عن أبي هريرة]

الذي عنده شركة لها توزيع عالمي ، الآن معظم الشركات يسمونها متعددة الجنسيات ، الشركة هذه تبيع بكل القارات ، الذي عنده شركة وتبيع العالم كله بضاعتها :

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[رواه ابن المبارك عن أبي هريرة]

إذاً البطولة وأنت في وقت مبكر أن تدرس الفوز الذي تسعى إليه ، القرآن الكريم :

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

الفائز ، الناجح ، العاقل ، الذكي ، الذي يطيع الله ورسوله ، ولكن .

من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظمه الله :

أيها الأخوة ، هناك نقطة دقيقة جداً أن الآية الكريمة هذه

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

هذه آية معناها واضح ، معناها سهل ، إدراكه سهل جداً ، لكن أن تعيش معناها شيء صعب ، إدارك المعنى شيء ، وأن تعيشه شيء آخر ، لو أن إنسان قرأ الآية وتأثر بها وقال : أي والله ،

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

وكان هذا الإنسان دخله محدود ومرتبته الاجتماعية متدنية ، موظف صغير ، بيته ستين متراً ، عنده زوجة وولدان ، ما عنده سيارة ، له صديق كان معه على مقعد الدراسة ، فوجد بيته ثمنه ٨٠ مليون ، وسيارته ثمنها ١٢ ، عنده محل ، عنده مزرعة تأخذ بالألباب ، ودخله فلكي والمال بين يديه كالتراب ، قال : هنيئاً له صديقه ليس مستقيماً ، رأى صديقه ليس مؤمناً متفلت ، ولكن بيت ، ومركبة ، ودخل ، ومزرعة ، إذا قال هنيئاً له الآية ما عاشها ، أدرك معناها ولم يعيشها ، لذلك:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص الآيات : ٧٨ ـ ٧٩)

بصراحة عندما يتمنى إنسان أن يكون مكان إنسان غني متفلت ، يكون الآية ما عاشها أبداً ، معناها سهل ، أن تدرك الآية معناها سهل ، أما أن تعيشها تحتاج إلى جهد كبير ، يعني أن تكون في ضيق مادي ، وأن ترى من حولك غارقين في النعيم والترف ، ولا تتمنى أن تكون مكانهم مع معاصيهم، أبداً ، وترى أنك ملك ، ترى أنك متفوق ، ترى أنك ناجح ، ترى أنك فالح ، ترى أنك في قمة النجاح حينما عرفت الله ، وحينما استقمت على أمره .

لذلك قالوا : من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظمه الله .

في القرآن الكريم الفوز كل الفوز والنجاح كل النجاح لمن أطاع الله و رسوله :

أخوانا الكرام ، في القرآن الكريم الفوز كل الفوز ، والنجاح كل النجاح ، والعقل كل العقل ، والذكاء كل الذكاء ، والتوفيق كل التوفيق في طاعة الله ، لذلك مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح ، ومستحيل أن تعصيه وتكون عزيزاً ، ومستحيل أن تطيعه وأن تكون ذليلاً ، سبحانك إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت، هذه حقائق ، بطولتك بعد قراءة القرآن ، وقراءة السنة ، ولزوم مجالس العلم ، وأن تعيش بين المؤمنين ، أن تقترب مقاييسك في الفوز من مقاييس القرآن الكريم .

للتقريب : لك دخل لا يكفي لكن حلال مئة بالمئة ، هناك وظيفة دخلها عشرة أضعاف لكن فيها شبهة ، مال في شبهة ، حينما تقول معاذ الله ، يا رب معاذ الله ، أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أنت الآن جاءت مقاييسك بالفوز كمقاييس القرآن ، حينما تركل الدنيا بقدمك إذا فيها شبهة ، أو فيها حرام ، أو فيها بعد عن الله ، أو فيها فوز

على حساب دينك ، إذا ركلتها بقدمك مقاييسك صحيحة ، أما إذا ضعفت أمام إغراء ، أو أمام ضغط، أي المؤمن لا يخضع لا لسياط الجلادين اللاذعة ، ولا لسبائك الذهب اللامعة ، المؤمن رقم صعب ، لا يساوم ، ولا يتنازل ، ولا يباع ، ولا يشترى ، لأنه عرف الله

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

هذا قانون الأصل .

لذلك كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله ، لذلك الذي يموت موحداً مستقيماً طاهراً بمقياس من مقاييس النصر هو منتصر ، ولو قُتل ، ولو قُتل في ساحة المعركة ، مادام مات على الإيمان فهو الفائز .

مصاحبة أهل الإيمان تحفظ الإنسان و تبعده عن الخطأ و المعصية :

أخوانا الكرام ، إن صاحبت المؤمنين ، أو إن صاحبت كبار المؤمنين ، أو إن لزمت مجالس العلم، إن كان الجو الذي حولك إيمانياً تقترب مقاييسك للفوز من مقاييس القرآن والسنة ، وإذا ابتعدت ، يا ترى ما هو الفوز ؟ المنصب هو الفوز .

لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩))

(سورة التوبة)

بقدر ما تقترب من أهل الإيمان تقترب مقاييسك في الفوز من مقاييس القرآن وبقدر ما تبتعد عن أهل الإيمان تصبح المقاييس مادية ، مادية محضة .

توزيع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء :

أيها الأخوة ،

(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)

معنى

(مَتَاعُ الْغُرُورِ)

الله عز وجل وزع الحظوظ في الأرض وفي الدنيا توزيع ابتلاء ، فكل واحد منا مبتلى بما زوي عنه ، ومبتلى بما أعطاه الله إياه ، أنت في عندك قائمتين ، قائمة البنود التي نلتها من الله ، وقائمة

ثانية البنود التي زويت عنك ، أنت ممتحن بهاتين القائمتين ، فكلما ازداد إيمانك ترى أن نجاحك في هذين الامتحانين هو الفوز .

يعني إنسان يُفتن أحياناً فينجح ، يُفتن فيسقط ، في قضية كلمة جاءت مصيبة قلت : الحمد لله ، المصيبة جاءت وفتنت بها ونجحت حينما قلت الحمد لله .

فلذلك ليست البطولة أن يكثر مالك بل أن ينمو إيمانك ، من هنا ترى أن سيدنا عمر لما دخل على سيدنا رسول الله ، وقد اضطجع على حصير وآثر الحصير على جنينه الشريف أو على خده ، فبكى عمر ، قال : يا عمر ماذا يبكيك ؟ قال : رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ، قال : يا عمر إنما هي نبوة وليست ملكاً ، أنا لست ملكاً ، إنما هي نبوة وليست ملكاً ، يا عمر أفي شك أنت ؟ يا عمر أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا .

مرة قال لي أخ : المؤمن ليس أسعد من غيره ، وأصرّ على هذا المعنى ، فقلت له تصور : إنسان فقير عنده أولاد ثمانية ، دخله أربعة آلاف ، بيته بالأجرة ، عليه دعوى إخلاء ، هكذا ، له عم يملك خمسمئة مليون ، ما عنده أولاد ، مات بحادث ، هذا الإنسان الفقير فجأة بدقيقة واحدة انتقلت له الخمسمئة مليون ، لكن لن يقبضها إلا بعد سنة ، معاملات ، وبراءات ذمة ، وروتين معقد ، لماذا هو في هذه السنة من أسعد الناس ، مع أنه ما قبض مبلغاً واحداً ولا ليرة ؟ في الوعد .

(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

المؤمن في سعادة دائمة لأن الله عز وجل وعده بحياة طيبة :

الله عز وجل وعد المؤمن بحياة طيبة .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)

(سورة فصلت)

(قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا)

(سورة التوبة)

فيا أيها الأخ الكريم ، أنت حينما تأتي مقاييسك للنجاح وفق مقاييس الله ، مقاييس الله عز وجل مقياسان ، الأول

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

والمقياس الثاني :

(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)

تغر ، وتضر ، وتمر .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (١٤- ٢١) : الشفاعة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قانون الشفاعة:

أيها الأخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في القرآن الكريم والقانون اليوم قانون الشفاعة.

بادئ ذي بدء:

(مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ)

(سورة البقرة الآية: ٢٥٥)

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

(سورة الفجر)

الوتر الواحد، والشفع الزوج، يعني إنسان التقى مع إنسان، رجل تزوج امرأة، شريك شارك أخاً، إنسان سافر إلى بلد فالتقى مع أناس، أي لقاء بين شخصين، أي لقاء بين عنصرين، أي جمع بين شيئين هو شفاعة،

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

الشفع الزوج والوتر المفرد.

كل حركة يقوم بها الإنسان محسوبة عليه يوم القيامة:

أيها الأخوة، قانون الشفاعة في قوله تعالى:

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا)

(سورة النساء الآية: ٨٥)

يعني أنت دللت شاباً على فتاة مؤمنة، هذه الأسرة وما ينتج عنها من ذرية صالحة، ومن خير عميم، ومن أولاد مؤدبين، ودينين، أي خير ينتج عن هذه الأسرة إلى يوم القيامة لك منه نصيب، والعياذ بالله لو دللت إنساناً على معصية، وهذه المعصية استمرت، ونمت إلى يوم القيامة كل هذا الشر يتحمل الذي دلّ عليه كفلاً منه، الآية دقيقة

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا)

(وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا)

(سورة النساء)

الآن حركتك، قال لك إنسان عندي فتاة في الشهادة الثانوية، وبحاجة إلى مدرس لغة، أو رياضيات، لو أنه صار في خلوة، وصار في مشكلة أنت في صحيفتك هذا الذي حدث، دلّه على مدرسة متفوقة، لئلا تكون خلوة.

أن تتكلم، وتنصح الناس بأعمال، بأشياء، بعلاقات، بسفر، بتفلت، وأنت تنام مطمئن البال

(وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا)

لذلك ورد: من مشى بتزويج رجل بامرأة كان بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها، عبادة سنة قام ليلها، وصام نهارها.

((وأفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي رهم السمعي]

الدال على الخير كفاعله:

هل دللت إنساناً على مسجد ؟ أو على طلب العلم ؟ أو أقنعته أن يقرأ هذا الكتاب ؟ أو أن يفهم كلام الله ؟ أو يطبق سنة رسول الله ؟ دقق: أية كلمة تقولها، أي تصرف تفعله، أي لقاء يتم، أي نصيحة تجريها، كل خير صدر عن هذه النصيحة لك منه نصيب.

تصور إنسان دللته على أن يضع مئة مليار في مشروع استثماري، لك من هذا المشروع نصيب من الأرباح إلى أبد الآبدين، أنت دللته فقط، هكذا عطاء الله عز وجل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

(سورة الصف)

كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن نربح عليه، فدلنا على المتاجرة معه.

لذلك أيها الأخوة، هذا الدرس، وهذه الآية، وهذا القانون ينظم حركتك في الحياة، الدال على الخير.

((الدال على الخير كفاعله))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

نية المؤمن خير من عمله ونية الكافر شر من عمله: مرة ثانية: نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله، هذا الذي أمر بإلقاء قنبلة على هيروشيما، ومات ثلاثمئة ألف إنسان خلال ثواني، الذي لم يمت من هؤلاء ابن، زوجة، كل المعاناة إلى يوم القيامة في صحيفة هذا الذي اتخذ

قراراً.

أنت عندك دار نشر، طبعت كتاب فيه ضلالات، أي إنسان قرأ الكتاب وتأثر به، واعتنق عقيدة الكتاب في صحيفتك.

أخوانا الكرام، هناك قضية بالإنسان دقيقة جداً أن الإنسان يمكن أن يؤمن بمبدأ باطل، لكنه مريح، وقد يرفض مبدأ حقاً لكنه متعب، اعتقاد الإنسان متعلق بمصالحه.

لذلك أضرب على هذا مثلاً: لو أن إنساناً أراد أن يقتني مركبة، ولم يقتن هذه المركبة، إنسان آخر صديق له أراد اقتناء مركبة واقتنى هذه المركبة، وبعد أيام سرت إشاعة أنه هناك تخفيض في الرسوم ٥٠%، ما الذي يحصل ؟ الذي لم يشترِ المركبة يصدق هذا الخبر من دون دليل، من دون تحقيق، لأنه مريح له، الذي اشترى المركبة يكذب هذا الخبر من دون دليل، ومن دون تحقيق، لأنه مزعج له، الآن:

حينما جاء دارون وقال: ليس هناك إله، إنما هو تطور طبيعي، ففي مادة تطورت إلى كائن حي وانتهت بالإنسان، إله ما في، آخرة ما في، جنة ما في، نار ما في، على ماذا اعتمد هذا العالم ؟ اعتمد على أن الضفدع ينتج من الوحل، تأتي بوحل، هذا كلام دقيق علمي، نظرية دارون في كتابه، أصل الأنواع يعتقد أن الضفدع تأتي من الوحل، وأن الفأرة تأتي من خرق بالية من بعض القمح، وأن الدود يأتي من اللحم المتفسخ، قال: وإن لم يثبت العلم نظريتي هذه باطلة، أول من تنبأ أن النظرية باطلة دارون نفسه، وقال: لابدّ من كائن مرحلي، مادام كان في خلية واحدة، ثم حيوان متعدد الخلايا، ثم سمك، ثم زواحف، ثم قرد، ثم إنسان، معنى هذا هناك كائن تطوري مرحلي بين المرحلتين، المستحاثات من خمسمئة و ثلاثين مليون سنة تثبت أن الحيوان ما تغير، هو هو، الآن علماء كبار أجانب لا يعرفون عن الدين شيئاً نقضوا هذه النظرية، الواقع، جميع الجامعات، وجميع الدول، والمؤسسات، والمناهج في التعليم الثانوي والجامعي، والموسوعات العلمية تتمسك بهذه النظرية، لماذا ؟ نقضت، أصبحت في الوحل، انهارت، لكنها مريحة، ما في مسؤولية، إن كنت قوياً الحق هو القوة فقط، كما ترى من خلال الطغاة، أنت قوي أنت على حق، هذا شعارها.

هذا الذي نشر هذه النظرية، يعني ملايين مملينة تؤمن بها، وبناءً على الإيمان بها تفلتت من منهج الله كلياً، في صحيفة من ؟ لذلك قال سيدنا علي: فاعل الشر شر من الشر.

أبواب الخير و الشر لا يعلمها إلا الله:

أحد العلماء اتخذ منهجاً غير صحيح، وألّف كتاباً وهو على فراش الموت قال يا رب أنا بريء من هذا الكتاب، علّق بعضهم أن مؤلف هذا الكتاب تاب، لكن كتابه لم يتب الآن أي كلام تقوله، أي كتاب تروجه، أي شريط تنشره، إذا في ضلالات، في أشياء مغلوطة، أي إنسان اعتنق هذا الفكر، وصدقه، وانحرف أنت تتحمل نصيب من الإثم درس خطير جداً،

(وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا)،

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا)

شخص دلّ إنسان على مسجد فيه حق، استقام، التزم، تزوج امرأة مؤمنة، أنجب أولاداً أطهاراً، ورباهم تربية عالية، هذه الأسرة آثارها إلى يوم القيامة في صحيفة من دلّه على هذه الفتاة. فأنت أمام أبواب خير لا يعلمها إلا الله، وأمام أبواب من الشر لا يعلمها إلا الله قال تعالى:

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة إبراهيم)

آثار أعمال كل إنسان في صحيفته:

النبي عليه الصلاة والسلام جاء إلى الدنيا وعاش بعد الرسالة ٢٣ سنة والآن الهدى عمّ الأرض، يعني المسلمون يزيدون عن مليار وخمسمئة مليون في صحيفته، لذلك:

((سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا))

[أخرجه مسلم عن ابن عمر]

يعني كل البشر الذين اهتدوا برسالته في صحيفته، وكل الضلالات التي روجها المبطلون في صحيفتهم، من أدرك هذا ؟ نوبل، نوبل حينما اخترع البارود أدرك ما سيكون أي عمل تفجيري، أي عمل عنيف في الأرض إلى يوم القيامة في صحيفته، لذلك رصد مبالغ فلكية سماها جائزة نوبل للسلام، حتى كفّر عن ذنبه، أي شيء تفعله.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

(سورة يس)

آثار الأعمال في صحيفتك، فأنت تدل على الله، أو تدل على تجارة ربوية، انتبه الأولى طريق إلى الجنة، والثانية مسؤول عن هذه الدلالة، تدل شاباً على فتاة متفلتة أم تدله على فتاة مؤمنة ؟ تدل إنساناً على تجارة محرمة، لكنها مربحة، أم تدله على تجارة حلال لكنها مربحة، أم تدله على تجارة حلال، لكن دخلها معتدل، أي شيء تقوله، أي شيء تفعله في صحيفتك، لذلك:

((من أعان ظالما سلطه الله عليه))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود]

في الدنيا قبل الآخرة، في الدنيا عذاب، وفي الآخرة عذاب.

((من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله))

[أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة]

قبل أن تنطق بكلمة، قبل أن تدل دلالة، قبل أن تنصح، أحياناً يقول لك: اللغة ضرورية جداً ينصحك صديقك أن ترسل ابنك إلى بلد غربي، والنصيحة جيدة، لكن نبهته أنه قد يرجع بلا دين، قد يغرق في الفواحش والآثام، قد يأتي عدواً لأمته، ما نبهته، عاد الابن يتقن اللغة الإنكليزية، لكن فقد دينه في صحيفة من ؟ في صحيفة من دلّه على ذلك.

كل إنسان مسؤول عن عمله أمام الله عز وجل:

انتبهوا يا أخوان، حاول أن تنصح الناس بالخير، حاول أن تنصحهم بطاعة الله، حاول أن تبعدهم عن دخل فلكي مشبوه، وأن تقنعهم بدخل قليل مشروع، حاول أن تدلهم على امرأة صالحة، حاول أن تدلهم على تجارة مشروعة، حاول أن تقول قولاً فيه الخير

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا)

والله مرة دُعينا إلى افتتاح مسجد في يعفور، والله الذي أنشأ المسجد له وجه كالبدر، من شدة التألق فرحاً بما فعل، استقبلنا، دعا معظم علماء دمشق واستقبلنا واحداً واحداً وأقام لنا طعاماً نفيساً، وبعد ذلك ألقيت الكلمات، سبحان الله لحكمة أرادها الله أنا خرجت من هذا الاحتفال على الطرف الآخر من موقع المسجد يوجد ملهى، فيه مبيقات لا يعلمها إلا الله، والذي أنشأ هذا الملهى مات بعد افتتاحه بأسبوع، هذا الملهى لو تابع انحرافه كل هذا الملهى من معاصٍ وآثام إلى يوم القيامة في صحيفة هذا الذي أنشأه.

والله أحد علماء دمشق كان في مصر، وحضر موت أحد كبار العلماء، وكان قد أفتى بالربا، يقسم هذا العالم أن هذا العالم الذي كان على فراش الموت رفع يديه هكذا وقال: اللهم إني بريء من فتاوى المصارف، لكن لا تكفي هذه، لأنه الذين أخذوا بفتواه وقعوا في الربا في صحيفته، فقبل أن تفتي، قبل أن تنطق بكلمة، قبل أن تحلل الحرام، قبل أن تحرم الحلال، قبل أن تدل على تجارة رابحة فيها شبهات، قبل وقبل اعلم علم اليقين أن كل من اتبعك تتحمل جزءاً من مسؤوليته، هذه آية

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا)

يعني إلى يوم القيامة، الذي جاء بنظرية دارون كل من تفلت من الدين، وكفر بالله رب العالمين، وأعطى نفسه كل ما تشتهي، وبنى مجده على أنقاض الآخرين في صحيفة هذا الذي أقنعه أنه غير مسؤول أمام الله عز وجل .

أي إنسان روج الباطل فكراً أو سلوكاً أو عملاً سيحاسب عليه يوم القيامة:

دققوا في الكلمة الثانية:

(وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)

(سورة إبراهيم)

الباطل ماله أصل، الباطل زائل، في بلاد رفعت شعار لا إله سبعين عاماً، ثم انهارت هذه البلاد.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

فأي إنسان روج الباطل فكراً، أو سلوكاً، أو عملاً، أو تجارة، أو شركة، أي إنسان روج للباطل فسوف يحاسب عن ذلك،

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا)

عود نفسك أن تدل الناس على الخير، أن تدلهم على طاعة الله، أن تدلهم على العمل الشريف، على دخل أقل من الدخل الكبير لكن في راحة نفسية.

الحكمة من جعل الحلال صعباً و الحرام سهلاً:

لحكمة بالغةٍ بالغة بالغةٍ جعل الله الحلال صعباً، والحرام سهلاً، لو أن العكس، لو أن الحلال سهل، والحرام صعب لترك الناس الحرام لا خوفاً من الله، ولا حباً به، ولكن لأنه أسهل، لكن لحكمة بالغة جعل الله الحلال صعباً، والحرام سهلاً، أحياناً إنسان يغض بصره عن مستودع يأخذ خمسة ملايين، فقط غضّ بصر، أما أن تُحصّل هذا المبلغ بالحلال تموت مئة مرة من أجل أن تصل إليه، فالحلال سهل وهذه حكمة بالغة، لكن دائماً وأبداً انتبه للنتائج.

حدثني أحد علماء حلب أنه فتح مطعماً في مركز المدنية جميع المحلات التي حوله تبيع الخمر، هو باعتباره مسلم كتب لوحة: ممنوع شرب الخمر بأمر الرب والرزق على الله، يقول هذا العالم: سنتان يبيع نصف دابة، وكل من حوله يبيع سبع دواب، وهو صابر، فجاء إلى شيخه، قال له: يا سيدي العمل ضعيف جداً، قال له: أنت تبت إلى الله ومنعت الخمر من أجل أن تكون غنياً أم من أجل أن ترضي الله فقط ؟ أنت راض لله فاستحى، يقسم بالله بعد حين الآن يبيع ٣٥ دابة باليوم، كل يوم.

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا ـ دقق ـ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

(سورة التوبة الآية: ٢٨)

أنت عندما تتوب يمكن أن تدفع الثمن باهظاً، ليكون هذا الثمن وسام شرف لك يوم القيامة،

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ)

(سورة التوبة الآية: ٢٨)

بعد حين، يعني في مرحلة إنسان كان يبيع خمراً أوقف بيع الخمر، الغلة تنزل للعشر، طبعاً. أقسم لي بالله أخ، قال لي: والله متعاقد مع ثماني عشرة شركة أجنبية، كان يبيع خمراً، قال لي دخل فلكي، لما أوقفت الخمر ثماني عشرة شركة ألغوا العقد معي، لم يعد زبائن إطلاقاً سنتين ثلاث، ثم أكرمه الله.

هناك فترة اسمها دفع ثمن قرارك.

الخير و الشر في صحيفتك إلى يوم القيامة:

فيا أيها الأخوة، والله لعل هذه الآية من أخطر الآيات،

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا)

أي شفاعة، أي دلالة، أي اقتران، أي جمع بين شيئين ينتج عنه شر تتحمل جزءاً من إثم هذا الشر، وأي دلالة، أو أي جمع، أو أي وساطة بين شيئين أنتاجا خيراً لك من هذا الخير نصيب.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (١٥- ٢١) : قانون العدل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

قانون العدل:

أيها الإخوة الكرام،مع درس جديد من دروس سنن الله في القرآن الكريم، والقانون اليوم هو قانون العدل.

الله جل جلاله كما تعلمون له السماء الحسنى والصفات الفضلى.

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٠)

١ –اسم العدل فمحقَّقٌ في الدنيا جزئيًّا وفي الآخرة كليًّا:

الحقيقة الأولى: أن كل أسمائه الحسنى محققة في الدنيا، عدا اسم العدل فهو محقّقٌ جزئياً، فالله سبحانه وتعالى يكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين، ويعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين، ولكن هذا الاسم العظيم يحقق كلياً يوم القيامة، لذلك:

(يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(سورة يونس الآية: ٤)

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(سورة الجاثية الآية: ٢٢)

نحن في ابتلاء، ولسنا في دار جزاء، نحن في دار عمل، ولسنا في دار أمل ، نحن في دار تكليف، ولسنا في دار تشريف، حينما تتوهم أن هذه الدنيا دار جزاء فقد وقعت في مطب كبير، إنها دار ابتلاء، قال الله عز وجل:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

٢ – لا يمكن بعقلك أن تثبت عدل الله:

فلذلك العدل من أسمائه الحسنى، ولكن لا يمكن بعقلك أن تثبت عدل الله إلا في حالة مستحيلة ؛ أن يكون لك علم كعلم الله.

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء)

أنت لك الظاهر، أنت رأيت القصة من فصلها الأخير، لكن ما اطلعت على فصولها كلها، لو اطلعت على فصولها كلها لرأيت من عدل الله ما تقشعر منه الأبدان، إنه عدل مطلق، لذلك لن تستطيع إثبات عدل الله بعقلك إلا بحالة مستحيلة قطعاً ؛ أن يكون لك علم كعلمه، ولكن بإمكانك أن تتيقن من عدله بإخباره، أخبرك:

(وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء)

الفتيل خيط في نواة التمر، بين فلقتي النواة، والنقير: النواة أحد رؤوسها مؤنف مذبب كالإبرة، هذا النقير، والقطمير: للنواة غلاف شفاف، لا نقير، ولا قطمير، ولا فتيل.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر الآية: ١٧)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت الآية: ٤٠)

أما:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

نفيُ شأن الظلم عن الله:

هذه الصياغة عند علماء البلاغة تفيد نفي الشأن، والفرق كبير بين نفي الحدث ونفي الشأن. لو سألك واحد: هل أنت جائع ؟ تقول: لا، هذا نفي الحدث، لكن ـ لا سمح الله ولا قدر ـ ولو أن إنسانا لا يعرفك، وافتقد شيئًا، يقول لك: هل أنت سارق ؟ هل يمكن أن تقول له: لا، أعوذ بالله، تقول له: ما كان لي أن أسرق، وهذا شيء لا أفكر فيه، ولا أرضاه، ولا أقره، ولا أستهدفه، ولا أرضى عنه، ولا أباركه، ولا أسكت عنه.

يمكن أن ينفى بالشأن أكثر من عشرة أفعال، الله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

لأنك تحب العدل، هكذا فطرتك، وتتمنى أن يكون عدل الله واضحاً عندك

لابد من فهم القصة والواقعة من جميع فصولها:

أحياناً العدل غير واضح، السبب ؟ أن هذه القصة اطلعت عليها من آخر فصل من فصولها. أنا أذكر قصة نموذجية أرويها دائماً، كنت أمشي في بعض أسواق دمشق، خرج من أحد المحلات رجل، واعترضني، وقال: أنت تخطب في المسجد ؟ قلت: نعم، قال لي: البارحة جاء إنسان إلى محله التجاري بأحد أسواق دمشق ليكسب رزقه، ويطعم أولاده ، قلت له: تابع، قال لي: سمع إطلاق رصاص، فمد رأسه ليرى الحقيقة، فإذا رصاصة تستقر في نخاعه الشوكي فشُلَّ فوراً، قال لي: ما ذنبه ؟! ولماذا فعل الله به هذا ؟! هو في عبادة، يقصد العمل عبادة، يكسب رزق أولاده، قلت: والله أنا أعلم علم اليقين أن الله عدلٌ، أما هذه القصة فلا أعرف ملابساتها، هذا فصل أخير، وانتهى الأمر، بعد عشرين يوما أحد إخوتنا الكرام ساكن بأحد أحياء دمشق قال لي: يسكن فوقنا رجل اغتصب بيتا لأولاد أخيه الأيتام من ٨ سنوات، وما تركوا طريقاً لإقناعه، أو الرجاء، أو الطلب أن يعيد لهم البيت إلا سلكوه، فلما يئسوا وسّطوا أحد علماء دمشق، وكان شيخ القراء ـ رحمه الله ـ فقال له: لن أعطيهم البيت، هذا الحاضر، فكان هذا العالم وقورا، وقال لهم: يا أولادي هذا عمكم، لا يليق بكم أن تشكوه إلى القضاء، اشكوه إلى الله، هذا الرجل هو نفسه الذي أعطى القرار الساعة التاسعة ليلاً، وخاطب شيخ القراء ـ رحمه الله ـ السابق هو نفسه في الساعة التاسعة صباحاً سمع إطلاق الرصاص، فمد رأسه، فجاءت رصاصة استقرت بنخاعه الشوكي، فشُل فوراً.

أيها الإخوة، كلكم جميعا، وأنا معكم وصل إلى سمعنا عشرات، بل مئات، بل ألوف القصص، كلها من الفصل الأخير، لا تعني شيئاً، ولن تستطيع أن تكشف منها شيئاً ، لكنك بحكم علاقاتك قد تعرفت إلى بعض القصص، من أول فصل إلى آخر فصل، حينما ترى عدل الله يقشعر جلدك، فالله عز وجل عدل، وقد أخبرنا فقال عن ذاته:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

عدل الله لا تبحث عنه بعقلك، هناك مفاجآت، لأن الله له آيات كونية، وهذا الكون الثابت الأول في الإيمان، الكون كله ينطق بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، الكون كله ينطق بوجوه، وكماله، ووحدانيته، ولكن أفعاله، تجد دول إسلامية تأتيها جائحات، تأتيها زلازل، يأتي القهر، يأتيها احتلال، فقر، على قهر، على تخلف، ودول غارقة في المعاصي والآثام.

لذلك أن تصل إلى عدل الله من خلال أفعاله فهذه منطقة خطرة، مفعمة بالألغام ، عدل الله يجب أن تصدق الله في إخباره، هذا الموقف الإيماني الكامل، الله عز وجل كل هذا الكون يشهد له بكماله، وبصدقه، وقد أخبرنا بآيات قطعية الدلالة أنه لا يظلم، إذاً: هو لا يظلم، وانتهى الأمر، وأحيانا حتى

يثبت الإنسانٌ عدلَ الله يقول لك: الله لا يعلم، ولو علم لكان ظالماً، أراد أن يبرئه من الظلم فأوقعه في الجهل، هذا سلوك، لكنه طريق مسدود، أن تحاول أن تكتشف عدل الله بعقلك.

٣ – الحظوظ الدنيوية موزَّعة توزيع ابتلاء:

هناك غني وفقير، وقوي وضعيف، وحاكم ومحكوم، وظالم ومظلوم، ومُستَغِل ومُستَغَل، وإنسان وسيم الصورة وإنسان دميم، وإنسان عمره طويل وإنسان عمره قصير، وإنسان ذكي ألمعي وإنسان محدود، الله عز وجل وزع هذه الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء.

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

لكن هذه الحظوظ سوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، وشتان بين توزيع الابتلاء وتوزيع الجزاء، توزيع الابتلاء موقت، سنوات تمضي.

إنسان امتحن بالفقر فنجح، صبر، وتجمل، وكان عفيفاً، فاستحق الجنة إلى الأبد.

امرأة ليست بارعة الجمال، وأخرى جمالها دون الوسط، لم يتح لها الزواج، بقيت عانساً، لكنها صامت شهرها، وصلت خمسها، وأطاعت أهلها، وخدمت أباها وأمها ، وماتت هكذا، لها جنة إلى أبد الآبدين، والتي كانت بارعة الجمال، وفسقت بجمالها، وانحرفت تموت، وينتهي هذا الجمال، فالموت ينهي كل شيء، الموت ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، وفقر الفقير، وينهي وسامة الوسيم، ودمامة الدميم، ينهي ذكاء الذكي، ومحدودية المحدود، ينهي كل شيء، ويبقى الجزاء.

فلذلك أيها الإخوة، تبصر أن كل قصة تسمعها من آخر فصل ضعها مجمدة، لا تحكم عليها، قل تعالى:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

((لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا في صَعِيدٍ واحِدٍ، فسألُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مِنْهُمْ ما سألَ لَمْ يَنْقُص ذلكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً إلاَّ كما يَنْقُص البَحْرُ أنْ يُغْمَسَ المِخْيَطُ فِيهِ غَمْسَةً وَاحِدَةً ؛ يا عِبادِي ! إنَّما هِيَ أعْمالُكُمْ أحْفَظُها عَلَيْكُمْ، ـ دققوا الآن ـ فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَزّ وَجَلّ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر اللّه أكبر))

[رواه ابن عساكر عن البراء بن عازب]

الآيات القرآنية المثبتة لعدل الله تعالى:

الآن إلى آيات القرآن الكريم:

آية عظيمة في العدل الإلهي:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

أي عمل صالح يساوي مثقال ذرة، وجدت قشة طولها ثلاثة ميليمترات على أرض المسجد، من شدة ورعك ومحبتك لله التقطتها، ووضعتها في جيبك، ما هذا العمل ! هذا العمل لن يضيع عليك.

قصصٌ من واقع الناس تظهر عدل الله :

القصة الأولى:

مرة كنت راكبا مع أخ من لبنان، هو في أثناء أحداث لبنان استقر في دمشق، يبدو أنه وقع له خطأ بالقيادة سبب ضررا لسيارة أخرى، والسيارة صاحبها يرتزق منها، سيارة عامة، والمألوف أن الإنسان إذا أصاب مركبته ضررٌ يصيح ويعلو صوته، ويتهجم، هكذا العادة في بلاد متخلفة، فإذا بهذا الأخ ينظر إلى الذي سبب له الحادث بابتسامة راضية، ويقول له: لا شيء عليك، سامحتك، والضرر بليغ، وهذا الذي تسبب في إيذاء هذه المركبة غني، وجدت منه دمعة تسيل على خده، هذه الدمعة حيرتني، إنسان غني، لو طلب منه خمسة آلاف فهي لا شيء أمام غناه، فلماذا دمعت عينه ؟ سألته: ما الذي أبكاك ؟ قال لي: أنا كنت ببيروت، وهناك سيارة يقودها إنسان كل نسائه محجبات، وأصابني بأذى في مركبتي، أردت ألا أفسد عليه نزهته، قلت له: مسامح، ما الذي دعاه للبكاء ؟ أن الله ما ضيع له هذا الموقف.

تأكد أنه لا تعمل عملا طيبا إلا وتلقى جزاءه ؛ إن في الدنيا أو الآخرة.

((البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل كما شئت، كما تدين تدان))

[أخرجه عبد الرزاق في الجامع عن أبي قلابة]

القصة الثانية:

لي قريب يعمل في إصلاح المركبات، له جار يعمل في العمل نفسه، جاءه إنسان من دول الخليج بمركبة حديثة جداً، وهو حريص على سلامتها، وفيها خلل، هذا الذي يعمل في إصلاح المركبات عرف أنه يجهل دقائق المركبة، أعطاه وصفا مخيفا، قال له: هناك شيء احترق، هذا استسلم له، كم تريد ؟ قال له: عشرة آلاف، متى تنتهي ؟ قال له: بعد أربعة أيام، قال له: طيب، مع أن إصلاحها حقيقةً يتم في دقيقة، لكن استغل جهله، ورفع السعر، وأطال المدة، قال لي: أخذ أهله أول يوم في نزهة إلى منطقة الزبداني بالسيارة نفسها، وفي اليوم الثاني أخذهم إلى طريق المطار، وفي اليوم الثالث أخذهم إلى وادي بردى، وفي اليوم الرابع جاء صاحب المركبة فأعطاه عشرة آلاف، وأعطاه السيارة، أصلحها بعد دقيقة، لكن أدرك أن صاحب المركبة جاهل في شؤون المركبة، يقول له جاره: ما هذا ! هل يجوز ذلك ! قال له: أنت الجاهل، هكذا العمل، فعَدَّ نفسه ذكيا، له ابن يعمل بمخرطة، دخلت شظية صغيرة من الفولاذ في قرنية عينه، كلفت عملية نزعها عشرين ألف ليرة لبناني، ثم دفع ثلاثين ألفا.

إنّ أيّ إنسان يتجاهل أن الله لا يحاسب يكون أحمق، وأيّ إنسان يأكل حق الآخرين يظن نفسه ذكيا هو أحمق وغبي.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

قال: يا رب، قد عصيتك ولم تعاقبنِي، وقع في قلبه أن يا عبدي، عاقبتك ولم تدر.

حينما تكون مستقيماً على أمر الله فلك معاملة خاصة، أما حينما تأكل ما ليس لك فإنك تدمر مالك، وتدمر بيتك، وحينما تعتدي على أعراض الناس يعتدي الناس على عرضك، وحينما تأخذ ما ليس لك يؤخذ ما ليس لهم، هذا عدل الله:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

رفع قشة من أرض المسجد، أو وجد نملة على المغسلة فخشي أن تغرق بماء الوضوء، فانتظر حتى خرجت إلى طرف المغسلة:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

ابتسمت في وجه أخيك، سألته عن أحواله، لقيته بالبشر، تواضعت لإنسان ، فرّجت عن إنسان شيئاً، وقفت لإنسان متقدم في السن في المركبة العامة.

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

والله لو لم يكن في كتاب الله غير هذه الآية لكفت.

جاء أعرابي النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله، عظني ولا تُطِل، فتلا عليه هذه الآية:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

قال: كُفيت.

القصص لا تعد ولا تحصى:

القصة الثالثة:

هناك رجل يذهب إلى المطار، وهو ماهر بالقيادة، فوجد كلبا صغيرا على طرف الطريق، استطاع أن يدهس يديه فقط، وأطلق ضحكة هستيرية على براعته أنه استطاع أن يقطع يديه فقط، أقسم لي بالله من كان معه في المركبة في الأسبوع القادم في المكان نفسه تعطلت المركبة، وأصاب العجلة خلل، فرفع المركبة على الرافعة، وبدأ يسحب العجلة، لكن الرافعة فَسَدت، ووقعت المركبة على العجلة، والعجلة فوق رسغيه فانهرست، بعد ساعة اسودت يداه، فقُطِعتا، قال لي: والله السبت قطع يدي جرو صغير، وفي السبت التالي قطعت يداه.

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

قمة ذكائك، وقمة علمك أن تخاف من الله أن تؤذي مخلوقاً.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه]

دخلت امرأة النار في هرة فما قولكم بما فوق الهرة ؟

القصة الرابعة:

هناك قصة رمزية، لكنها معبّرة: إن إنسانا غنيا جداً في مصر وافته المنية، فخاف عليه أولاده في أول ليلة في القبر خوفاً شديداً، فأعطوا إنسانا فقيرا معدما عشر جنيهات لينام معه الليلة الأولى، بعد ما أُغلق القبر جاء الملكان فوجدوا رجلين ـ القصة رمزية طبعاً ـ قال له: هذا حيٌّ، وليس ميتا، تعال نبدأ به، وكان لابسًا كيسَ خيشٍ أحمر فتحه من الأعلى، وأخرج رأسه، وفتحه من الطرفين وأخرج

يديه، وربطه بحبل، من شدة فقره، بدؤوا بالحبل، من أين أتيت بها ؟ من البستان، كيف دخلت إلى البستان ؟ ما عرف الجواب، فعذبوه، كيف دخل البستان ؟ خرج من القبر وقال: الله يعين أباكم.

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

هذه الآية تكفي، ويمكن أن تقصّر في حق الله عز وجل، ولكن الصلح بلمحة، وما كان بينك وبين الله يغفر بكلمة، يا رب، تبت إليك، يقول لك: عبدي، وأنا قبلت، ما كان بينك وبين الله يغفر بكلمة، والصلح بلمحة، لكن ما كان بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالأداء أو المسامحة، فعد للمليون قبل أن تظلم مخلوقاً، ولو كان كافراً.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ:

((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه]

ولو كان كافراً.

إنّ درعا سرقها منافق في عهد النبي ينتمي للأنصار، وَدَعَها عند اليهودي، واتهم اليهودي بالسرقة، فالصحابة لا يعلمونه منافقاً، فتمنوا أن يكون بريئاً، واليهودي هو الذي سرقها، فتمنيات النبي أن يكون بريئاً، وأن هذه الذي وجدت عنده هو السارق، فجاء العتاب الإلهي:

(وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا)

(سورة النساء)

عدل الله لا علاقة له بالتدين، له علاقة بالاستقامة، إنسان ظلمته، هناك إثم كبير.

أيها الإخوة، إذا عرفنا عدل الله عز وجل نفكر تفكير مديد قبل أن نأخذ ما ليس لنا.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان:

كل إنسان عنده مشكلة: شاب يبحث عن عمل، هذه مشكلة، شاب يبحث عن زوجة، هذه مشكلة، إنسان له زوجة ليست كما يتمنى، هذه مشكلة، إنسان دخله قليل، إنسان عليه ديون لا قِبَل له بوفائها، وما أكثر الهمومَ، إنسان عنده مشكلة صحية، حياة البشر هكذا أرادها الله أن تكون.

نحن في دار ابتلاء لا في دار جزاء، نحن في دار تكليف لا في دار تشريف، نحن في دار عمل لا في دار أمل، طبيعة الحياة الدنيا كما وردت في بعض الآثار:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

لذلك لعلماء العقيدة رأي في أسماء الله الحسنى يجدر أن أتحدث عنه: لا يجوز أن تقول: الله ضار، مع أن الضار من أسماء الله الحسنى، يجب أن تقول: ضار نافع، أي أنه يضر لينفع، لا يجوز أن تقول: الله خافض، فقط، مع أن الخافض من أسمائه الحسنى، قل: خافض رافع، يخفض ليرفع، لا يجوز أن تقول: الله مذل، هو مذل، لكنه مذل معز، يذل ليعز.

مجالات الامتحان:

١ ــ الامتحان بالعطاء:

أيها الإخوة، شاءت حكمة الله أن تكون الحياة دار ابتلاء، الابتلاء هو الامتحان ، لكن ما هي بنود امتحان كل واحد منا ؟ أنت ممتحن في زمرتين، في زمرة مكنك الله منها ، أعطاك مالا فأنت ممتحن بالمال، أعطاك صحة، أعطاك عقلا راجحا، أعطاك طلاقة لسان، أعطاك شكلا وسيما، هذه الميزات، وهذه الخصائص، وهذه الحظوظ بنود امتحانك مع الله، فقد تنجح وربما لا تنجح.

٢ – الامتحان بالمنع:

الآن: هناك بنود أخرى، زوى عنك الصحة أحياناً، عندك متاعب في جهاز الهضم مستمرة، زوى عنك الوسامة، فلا وسامة، زوى عنك المال، دخل محدود.

أنت ممتحن في زمرتين، الحظوظ التي مكنك الله منها، والحظوظ التي زويت عنك، من هنا جاء الدعاء الرائع: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي]

لذلك الآية الكريمة:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

(سورة القصص الآية: ٧٧)

إذا آتاك الله المال فابتغ به الدار الآخرة، إذا آتاك الصحة فاستهلكها في طاعة الله، إذا آتاك الله مالاً فأنفِقه في سبيل الله، إذا آتاك الله طلاقة لسان فكن داعية إلى الله ؛ بيّن الحق، بيّن القرآن:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

إذاً: عندك زمرتان من الامتحانات، الحظوظ التي مكنك الله منها، والحظوظ التي زواها عنك. لو تصورنا إنسانان عاشا ستين عاما بالضبط، أحدُهم كان غنيًّا، والآخر كان فقيرا، لو توقعنا أن الغني لم ينجح في امتحانه، استكبر بماله، استعلى على عباد الله، أنفقه على ملذاته، وشهواته المحرمة، والفقير نجح في امتحان الفقر، تجمَّل، وصبر، وتعفف ، وأطاع الله عز وجل، الستون عاما انتهت، كم سنة بقي بعد الموت ؟ إلى أبد الآبدين، ما هو الأبد ؟

والله أيها الإخوة، والله ما مِن عقل بالأرض يستوعب الأبد، ماذا أقول ؟ بيننا وبين الشمس ١٥٦ مليون كيلومتر، تصور رقم (واحد) في الأرض وأصفارا إلى الشمس، لا كل كيلومتر صفر، كلّ ميليمتر كل م صفر، ما هذا الرقم ؟! هذا رقم لا يستوعبه العقل، ١٥٦ مليون كيلومتر من الأصفار، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم ضعه صورة، وضع مخرجه لا نهاية، القيمة صفر، كذلك الدنيا صفر.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[رواه الترمذي]

الغنى والفقر بعد العرض على الله، خذ ما شئت إنك مفارق.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن علي]

لذلك العقل، والذكاء، والتوفيق، والنجاح، والتفوق في طاعة الله.

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

إذاً: نحن في دار ابتلاء، والابتلاء منوّع، إما إيجابي أو سلبي، لو كان الابتلاء سلبيا فأنت أمام طريق مسدود، ما من عمل، وشاب بغير زواج، ما عنده بيت، مشكلات الحياة لا تعد ولا تحصى، مرض معقد يحتاج إلى أموال طائلة، هذا كرب.

قانون تفريج الكرب، والله الذي لا إله إلا هو، وألقى الله بهذا الكلام لزوال الكون أهون على الله من أن تتقي الله.ثم لا ترى الفرج، في أيّ مكان كنت، في أيّ زمان، بأي محيط، بأي بيئة، بأي نظام، بدولة غنية، فقيرة، شرق، غرب.

قانون الفرَج: وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

١ – وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا

هذه شعار عظيم لكل شاب، ممَّ تشكو ؟ اتق الله، اتق الله يجعل لك مخرجا، اتق الله في اختيار زوجتك يجعل الله لك مخرجاً من الشقاء الزوجي، اخترها ذات دين، تربت يداك إن لم تفعل، اخترها تعرف الله، إنها أم أولادك، من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، ومن لا يتقي الله في اختيار زوجته تريه النجوم ظهراً، لأن المرأة جنة أو نار.

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً)

(سورة البقرة الآية: ٢٠١)

تقوى الله في كل شيء:

من يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم، فحينما تعتني بابنك صغيراً، تأخذه إلى المسجد، تحفظه كتاب الله، تهتم بأخلاقه، بأصدقائه، بدراسته، بصحته، بعاداته، بتقاليدك، هو معك يلزمك، فإذا شبّ رأيته قرّة عين لك.

والله أيها الإخوة، ما من شيء أغلى على الأبوين من ابن صالح يدعو لهما من بعدهما، هو صدقة جارية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم]

لذلك يقول سيدنا عمر: << أقوم إلى زوجتي وما بي من شهوة، إلا رجاء ولد صالح ينفع الناس من بعدي >>، لأن الولد ثروة كبيرة.

يا أيها الإخوة، نحن في امتحان، عندنا مشكلة زوجية، مشكلة الأولاد، مشكلة الدخل، مشكلة الصحة:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

حدثني أحد علماء دمشق جاءه شاب، قال له: أنا ما معي شيء، وأنا في سن الشباب، وأنا أتمنى أن أتزوج، لا بيت، ولا عمل، ولا مهر، يعمل في محل تجاري بدخل قليل جداً، قال له: اتق الله، قال له: هذه أين تصرف ؟ كيف أتقي الله ؟! ما فهم أبعادها، قال له: ما عندي غيرها، مع السلامة، هذا الرجلُ فكّر في قول العالم: اتق الله، مجال تقواه عمله، هو موظف بسيط جداً في محل، يبدو أنه أخذ هذا الكلام بمحمل خطير، قال بعدها: داومت دواما كاملا كأن المحل لي، غضضت بصري عن أي فتاة تدخل إلى المحل، ما كذبت أبداً، نصحت الزبائن، يذكر تفاصيل، فصاحب المحل وجد الوضع غير طبيعي، كأن هذا العامل صاحب المحل، من كثرة اهتمامه، ودوامه الكامل، الذي حصل ؛ أن صاحب المحل طمع به أن يكون زوجاً لابنته، لكن ما أخبره، وأمّن له بيتا جيد جداً، وصار يقول له: رافقني، أنا مضطر أن أكسو بيتا، أنا أحب ذوقك، هو يختار السيراميك، هو يختار البلاط، بعدما انتهى هذا البيت قال له: هذا البيت لك، أنا سأزوجك ابنتي، فدعا الشيخ إلى عقد القرآن، قال له: سيدي ما تذكرتني ؟ قال له: لا والله، قال له: أنا مرة جئت إليك، وقلت لي: اتق الله، أنا اتقيت الله الله فأكرمني بزوجة وبيت ودخل جيد.

أنا والله وألقى الله بهذا الكلام: لا أصدق في الأرض في القارات الخمس من آدم إلى القيامة أن شابا يتقي الله والله عز وجل لا يفرج عنه، وما أكثر المشكلات.

والله مشكلات العالم الإسلامي تنهد لها الجبال، صعوبات كثيرة، طرقٌ مسدودة، أبواب مغلقة، قهر كبير، قتل يوميّ، فقد حرية، مرض عضال، جوائح مميتة، شيء لا يحتمل، وأنتم ترون بعيونكم ماذا يجري في العالم:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

من يتق الله في اختيار زوجته:

(يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

من الشقاء الزوجي.

من يتق الله في تربية أولاده:

(يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

من عقوقهم.

من يتق الله في كسب ماله:

(يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

من تلف المال .

من يتق الله في التوحيد:

(يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

من الشرك.

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت.

مرة قال أعرابي للنبي الكريم: عظني ولا تطل، فتلا عليه قوله تعالى:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

قال: كُفيت، أعرابي اكتفى بقسمٍ من سورة في آيتين.

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

اتق الله تر الأمور ميسرة.

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

دققوا في هذه الآية، صدق أنه مخلوق للجنة لا للدنيا، وحينما تؤمن أنك مخلوق للجنة تنعكس الموازين كلها، ترى الذكاء، والفلاح، والفوز، والتفوق في العطاء لا في الأخذ، ترى النجاح،

والفوز، والذكاء في بذل جهدك للآخرين لا في أخذ جهودهم، إن لم تنعكس مقاييسك بعد الإيمان بالله واليوم الآخر فإن في الإيمان خللا.

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

أيها الإخوة، هذه الآية هي الحل، المسلمون ماذا يعانون ؟ والله لا أعتقد أنه مرَّ في تاريخهم زمن أصعب من هذا الزمن، هم متّهمون بعقيدتهم، وبأخلاقهم، متخلفون ، إرهابيون، قتلة، جهلة، فقراء، متهمون، ما الحل ؟ الحل بكلمتين، كلمتان في كتاب الله، الدليل: قال تعالى:

(وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

وفهْمُكم كفاية.

٢ – وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا

قال الله:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية: ١٢٠)

هذا كلام خالق السماوات والأرض، هذا الكلام زوال الكون أهون على الله من ألا يقع، هذا الكلام:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

عظمة هذا الدين أيها الإخوة أن المجموع إذا طبقه قطف ثمارا يانعة، وإذا طبقه واحد وحده قطف ثمارا يانعة، فهو دين جماعي، ودين فردي، وإذا شرد الناس عن الله، ولم يستقيموا، وتنكروا لهذا الدين، وانغمسوا في الشهوات والمعاصي والآثام فدعك منهم ، الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(سورة المائدة الآية: ١٠٥)

من علامات آخر الزمان:

أما في آخر الزمان صعب جداً.

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّا مُطاعاً))

[أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه]

مادية مقيتة، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل.

((إذَا رَأَيْتَ شُحّا مُطاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً))

[أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه]

الجنس هو كل شيء في حياة الناس، نحن أمة اقرأ، يعني بشهر رمضان بشهر العبادة، بشهر التقوى، بشهر القرب، بشهر الصلة بالله ما في غير مسلسلات، هذا واقع الناس، كان شهر عبادة صار شهر فلكلوري، شهر ولائم.

فيا أيها الإخوة.

((إذَا رَأَيْتَ شُحّا مُطاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيهِ، فامسك لسانك، والزم بيتك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة))

[أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه]

فهذا الدين عظمته إن طبقته الأمة انتصروا، ووصلوا إلى أطراف الدنيا، لأنه لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكة، لكنه وصل إلى الصين !

سيدنا ابن رواحة كلفه النبي عليه الصلاة والسلام أن يقيّم تمر خيبر، هناك اتفاقية بينهما، فجاء إليهم كي يقيّم تمرهم، فأغروه بحليّ نسائهم كرشوة، قال: والله جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالت اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

نحن أمة نعاني ما نعاني، والله خلاصنا بيدنا، والورقة الرابحة بيدنا، والكرة في ملعبنا، والله ينتظرنا.

(وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية: ١٤)

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

أيها الإخوة، فنحن حينما نطبق هذا الدين تطبيقا جماعيا نقطف ثمارا يانعة.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور الآية: ٥٥)

خاتمة:

ثلاثة وعود: الاستخلاف، والتمكين، والتطمين، ونحن الآن لسنا مستخلفين ولا ممكنين، ولسنا مطمئنين، هذه الحقيقة، والأمر بيدنا، فإما أن تطبق هذا الدين ـ أيها الأخ المؤمن الكريم ـ وحدك فتقطف ثماره يانعة، أو أن يطبق المجتمع كله هذا الدين فنقطف ثماراً جماعية.

كل إنسان يتأمل، ويدقق، ويحقق، ويرسم لنفسه خطة، يبحث عن النقاط السلبية في حياته، موضع المعاصي، موضع الآثام، موضع التقصير في أداء الواجبات ، موضع الإنفاق غير صحيح، موضع الكسب المادي فيه شبهة.

أذكر كلمة وردت في شأن الحج: من وقف في عرفات، ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له، أقيس على هذا أنه يجب أن يغلب على ظنك أن الله غفر لك، وأن الله قبلك، وأن الله أعتقك من النار، وأنك فتحت مع الله صحة جديدة، وأنك اصطلحت مع الله ، وأنك عدت إلى الله.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلان فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

والله الذي لا إله إلا هو كلمة (هنيئاً لك) لا تصلح إلاّ لمن اصطلح مع الله، تهنئه ببيت سيتركه، تهنئه بمركبة سيتركها، تهنئه بمال وفير سوف يفارقه، أما أن تهنئه بالهدى فهو الأولى.

لذلك: تمام النعمة الهدى، النعمة الحقيقية الهدى، سيدنا علي رضي الله عنه يرتب النعم ثلاثة مستويات، نعمة الهدى رقم واحد، نعمة الصحة رقم اثنان، نعمة الكفاية رقم ثلاثة.

((من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه الترمذيوابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة الله ومعرفة أمره منهيه:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في كتابه الكريم، ومن هذه السنن:

(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ)

(سورة النحل الآية: ١٠٤)

هذه الآية في سورة النحل، مفادها أنه لا بد من أن تعرف الله، ثم أنه لا بد من أن تعرف أمره ونهيه، وكأن في الدين ركنين كبيرين: معرفة الله عز وجل، ومعرفة منهجه ، وأن محور ليلة القدر أن تعرف الله، أن تقدره، أن تعرف أنه خالق السماوات والأرض ، وأن تعرف أنه رب العالمين، وأن تعرف أنه لا إله إلا هو، وأن تعرف أسماءه الحسنى اسماً اسْماً.

هذا الذي ليس عنده وقت ليعرف الذي خلقه، ومَن إليه المصير، ليعرف أن الذي خَلَقه خَلَقه لجنة عرضها السماوات والأرض، هذا الذي ليس عنده وقت ليعرف منهج الله عز وجل الخبير.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

كيف يستطيع أن ينجو من مزالق الحياة الدنيا، أنت كائن ممتلئ بالشهوات والشهوات قوى دافعة.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٤)

هذه الشهوات قوى تدفعك نحو جهة ما، فيأتي العلم، العلم بالله، والعلم بمنهجه ليرشد هذه الحركة، وكأن الإنسان عقله كالمِقود، وشهواته محرِّك، والشرع هو الطريق، مهمة الشهوة أن تتحرك، ومهمة العقل أن يبقيك على الطريق، والطريق سالك إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

من معاني قدر الله حق قدْره معرفتُه:

فلذلك المعنى الدقيق لليلة القدر أن تعرفه، وفي الأثر:

((ابن آدم اطلبنِ تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

يا رب، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

حينما تعرفه تستغني به عمن سواه، وحينما تعرفه تصبح حراً، وحينما تعرفه لا تكون خطيئة لأحد، وحينما تعرفه لا تنافق لأحد، وحينما تعرفه لا تخضع لأحد، لأن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغنائه عن الناس، وحينما تعرفه لا تتضعضع أمام غني، ولا أمام قوي، وحينما تعرفه يعزك الله عز وجل.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

مَن منا لا يتمنى السلامة والسعادة ؟ مَن منا لا يتمنى أن يكون له شأن في الدنيا يعينه على عمل صالح، يفضي بها إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

أيها الإخوة، أكاد أقول: إن أصل الدين معرفة الله، الأمر والنهي بين أيدي الناس جميعاً، وأيّ إنسان نشأ في بيئة إسلامية، وسمع دروس التربية الإسلامية، وخطب الجمعة يعرف الحلال والحرام، ولكن لماذا يقترف الناس الحرام، ويمتنعون عن الحلال ؟ لأن شهواتهم تحركهم، والسعي إلى المال يدفعهم، لأنهم ما عرفوا الله، والله الذي لا إله إلا هو لو أن الإنسان عرف الله وآمن باليوم الآخر لكان أسعدَ الناس.

التكذيب العملي باليوم الآخر أمرٌ واقعٌ في المسلمين:

ذكرت قبل أيام أن الإنسان لا يجرؤ أن يقول: ليس هناك يوم آخر، وفي العالم الإسلامي ليس وارداً إطلاقاً أن يكذب المسلم باليوم الآخر، لكنّ أغلبية المسلمين في حركتهم في الحياة، وفي بيعهم، وفي شرائهم، وفي علاقاتهم يؤكدون بهذه الحركة أنهم لم يؤمنوا باليوم الآخر، الذي يغش المسلمين كيف سيواجه الله رب العالمين، الذي من أجل مبلغ من المال يصيب بأذاه المسلمين، هذا الذي ما عرف الله إنسان ضال، أو دابة متفلتة تبحث عن شهوتها أو عن مصالحها.

لذلك أصل الدين معرفة الله:

(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ)

لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

التفكر في الكون طريق إلى معرفة الله:

نحن في ليلة القدر من أجل أن نعرف الله، لا بد من أن تقتطع وقتاً لمعرفة الله، لأن أصل الدين معرفة الله، هذه الليلة نبدأ بها، ونتابع على مدى الأيام، وعلى مدى الأسابيع، وعلى مدى الشهور، يجب أن تتفكر في خلق السماوات والأرض.

التفكُّر في جسم الإنسان:

أيها الإخوة، يجب أن تقدر الله، وأن تعرفه و، الله عز وجل لا يرى بالعينين، ولا تدركه الأبصار، ولكن تصل إليه العقول، لو فكرت في جسمك، وهو أقرب آية إليك.

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

العيـن:

دقق في العين، فإنها تبدأ بطبقة اسمها القرنية شفافة شفافية مطلقة، وكيف كانت شفافة، لأنها نسيج وحيد يتغذى عن طريق الحلول لا عن طريق الشعريات الدموية، من أجل أن تكون الرؤية صافية، هذه يد من ؟ تقدير من ؟

في العين ماء، فإذا ذهبت إلى بلد بارد جداً، والحرارة ٦٩ تحت الصفر يجب أن يفقد كل إنسان بصره، إذ يتجمد الماء هناك، من أودع في العين مادة مضادة للتجمد ؟

أعلى آلة تصوير احترافية رقمية في كل ميليمتر مربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي، في الميليمتر المربع من الشبكية مئة مليون مستقبل ضوئي

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ)

(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ)

أنت في ليلة القدر، لكن هل فكرت أن تنطلق من هذه الليلة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ)

لو أنها عين واحدة، ماذا ترى بالواحدة ؟ الطول والعرض فقط، ترى سطحاً ولا ترى حجماً، ترى بُعدين، ولا ترى أبعاداً ثلاثة.

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ)

وكيف ترى العين الشيء بحجمه الحقيقي ؟ قف أمام جبل قاسيون، تراه بحجمه الحقيقي، صوره بأعلى آلة تصوير تراه هكذا، كيف ترى العينُ الشيءَ بحجمه الحقيقي ؟ هذا من آيات الله الدالة على عظمته.

العين البشرية تفرق بين ٨ ملايين لون

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ)

لا تنظر إلى صِغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

الشَّعر:

هل تفكرت في هذا الشعر، ففي رأسك٣٠٠ ألف شعرة، لكل شعرة وريد، وشريان وعصب، وعضلة، وغدة صبغية، وغدة دهنية، لماذا لم يضع في الله الأشعار أعصابَ حسٍّ ؟ لو أن في الشعر أعصاب حس لاضطررت أن تذهب إلى المستشفى، وأن تجري عملية خطيرة جداً تحتاج إلى تخدير كامل، إنها عملية الحلاقة، لكن الله سبحانه وتعالى ما أودع في الشعر، ولا في الأظافر أعصاب حس، أما في أيّ مكان آخر لو أصابه المقص لصرخت من الألم، فكر:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ

(سورة الانفطار)

الأنـف:

أيها الإخوة، لو دققت في الأنف عشرين مليون عصب شمي، كل عصب ينتهي بسبع أهداب، كل هدب مغمس بمادة معينة، تتفاعل هذه الأهداب مع الرائحة، وتتشكل بشكل هندسي ينتقل إلى الدماغ، فيعرَض على ذاكرة المشمومات، والذاكرة تقريباً فيها عشرة آلاف بند، فإذا وافق هذا الرمز ذاك الرمز تقول: في بالطعام المادة الفلانية، لأنك شممتها، هذا صنع من ؟

نحن في ليلة القدر.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر الآية: ٦٧)

الأذن:

تمشي في الطريق فتستمع إلى صوت مركبة، فتنزاح نحو اليسار، ما الذي حدث ؟ جهاز بالغ التعقيد في دماغ الإنسان يحسب تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين ، المركبة هنا، دخل الصوت إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن.

بالمناسبة: كما أن العينين معاً تدركان البعد الثالث، العمق، الحجم، الأذنان معاً تدركان جهة الصوت، ولو أنك لك أذنا واحدة لم تعرف جهة الصوت، تستمع إلى مركبة فتأتي أمامها، أما بالأذنين معًا فهناك جهاز بالغ التعقيد يحسب تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين، والفارق واحد على ١٦٢٠ جزءا من الثانية، يدرك الإنسان أن الصوت من جهة اليمين، فيعطي الدماغ أمرًا إلى الرِّجلين فينحرف الإنسان نحو اليسار، هذه يد من ؟ صنعة من ؟ هذا الإله العظيم يُعصَى ؟ هذا الإله العظيم ألا يُخطب ودُّه ؟ ألا تُرجى جنته ؟ ألا تُخشى ناره ؟

النطفة:

في اللقاء الزوجي من ٣٠٠ لـ ٤٠٠ لـ ٥٠٠ مليون نطفة، وتحتاج البويضة إلى نطفة واحدة، كيف يقول هذا النبي الأمي الذي عاش في الصحراء، ولم يقرا كتابا من قبل:

(وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

كيف يقول:

((مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ...))

[أخرجه مسلم وأحمد في مسنده عن أبي سعيد]

من نطفة واحدة، هذه النطفة لا ترى بالعين، لكن البويضة تشبه ذرة الملح ، ضع شيئاً من لعابك على طرف إصبعك، واضغط ضغطة خفيفة على الملح، تجد ذارت صغيرة، هذه الذرات هي حجم البويضة، الحوين لا يرى بالعين، والطفل يمكث في بطن أمه تسعة أشهر، له رأس، له شعر، له عينان، له أذنان، له أنف، له لسان، له جهاز هضم، له جهاز تنفس، له قلب، له أوعية، له شرايين، له أعصاب، له عضلات، له جلد، له جهاز إفراز، يد من ؟ صنعة من ؟ حكمة من ؟ نحن في ليلة القدر، من أجل أن نقدر الله عز وجل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

أيها الإخوة الكرام، ننطلق من هذه الليلة في التفكر في خلق السماوات والأرض ولكن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

(وَيَتَفَكَّرُونَ)

فعل مضارع يفيد الاستمرار، كلما ازددت معرفة بالله ازددت خشية منه، كلما ازددت معرفة لله ازددت طاعة له، كلما ازددت معرفة لله وقفت عند حدوده، وكلما ازددت معرفة بالله أقمتَ أمره، وانتهيت عما عنه نهى وزجر، هذه المسافة الكبيرة بين شرود الناس ومنهج الله سببها ضعف في معرفة الله، فأيّ خطأ يرتكبه المسلم فهو بسبب ضعف في معرفة الله، لو عرفته حق المعرفة بشكل طبيعي لأطعتَه.

هناك مَثل نابع من حياتنا اليومية:

لو جاءتك رسالة، أو إشارة، أو كتاب من دائرة البريد ؛ أن تعال يوم الخميس لتتسلّم رسالة مسجلة، وأنت في يوم الاثنين، قد تذهب، وربما لا تذهب لضيق الوقت، لكن لو تأتيك رسالة من جهة أخرى قوية تقول: تعال يوم الخميس راجعنا الساعة العاشرة، لا تنام ثلاثة أيام، ما الفرق بين الورقتين ؟ الآمر.

حينما تعرف مَن هو الله، من هو هذا الإله الذي خلقك فسواك فعدلك ؟ من هو هذا الإله الذي إليه المصير بعد موت فقد قدّرته حقّ قدْره.

الإنسان ضعيف، وفي لمح البصر يصبح في خبر كان:

والله كأن الموت كُتب على غيرنا، الإنسان بلمح البصر يصبح نعيًا وخبرًا في ثانية واحدة، نرى كل يوم الأموات، الشاب يموت، إنسان في مقتبل الحياة يموت، قبل العرس يموت، بعد التخرج، قبل التعيين يموت، يشتري البيت فلا يسكنه، الإنسان كل مكانته وكل عظمته، وكل هيمنته وكل حجمه المالي، وكل مكانته الاجتماعية على قطر شريانه التاجي، ميليمتر وربع، فإذا ضاق هذا الشريان بدأت متاعب لا تحتمل، يحتاج إلى عملية قلب مفتوح، إلى تبديل شريان، إلى موسع للشرايين، وكل هيمنة الإنسان وقوته مبنية على سيولة الدم، فإذا تجمد الدم في أي مكان في دماغه أصيب بعاهة أو عمى، أو شلل، أو في فقد ذاكرة.

ما هذا الإنسان ؟! أنت ضعيف، خثرة دم تنهي حياة الإنسان، أو تنهي حركته ، وتنهي مكانته. والله أعرف أخا له صديق، يحمل أعلى شهادة بالعلوم، وصل إلى منصب قبل الوزير، منصب رفيع جداً، وله دخل كبير، وله زوجة فرنسية، فقد بصره، البريد أرسل له لشهر، ثم نُحي من عمله،

يقول لصديقه: والله يا فلان أتمنى أن أجلس على الرصيف أتكفف الناس وليس على جسدي إلا هذا المعطف، وأن يرد الله إلي بصري.

(وَيَتَفَكَّرُونَ)

عندك عينان، وأذنان، وأنف، وفم، ولسان، وعقل، لك بيت، لك زوجة، لك أولاد، هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، هل هذا الإله العظيم يعصى ؟ أتنتهك حرماته ؟

أيها الإخوة، القضية قضية أن نؤمن بالله الإيمان الذي يحملنا على طاعته، أن نؤمن باليوم الآخر الإيمان الذي يمنعنا أن نؤذي نملة، هذا المؤمن.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فقَالَ مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[رواه الترمذي]

نحاسب على الكلمة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[رواه الترمذي]

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

خاتمة:

ليلة القدر ليلة ينبغي أن نعرف الله فيها، أو أن نبدأ منها بمعرفة الله، وأن يكون التفكر سلوكاً يومياً، كل ما عرفت الله ازددت وحبة له، من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه، هذه قواعد ثابتة ؛ إن عرفته أحببته، إن أحببته أطعته.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

لذلك قانون الهداية:

(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ)

الطريق مغلق لأنك ما عرفته، لو عرفته لأطعته، لو أطعته لسعدت بقربه في الدنيا والآخرة.
فيا أيها الإخوة، الإنسان ربما لا يرضى عن نفسه في رمضان، لكن بعد رمضان يمكن أن يجعل كل شهر بعد رمضان رمضان، بإتقان صلواته، بالتفكر في خلق السماوات والأرض، بأداء الصلوات في المسجد.

عَنْ جُنْدَبِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ فَلَا يَطْلُبَنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ))

[مسلم]

حينما تؤدي العبادات أداءً متقناً، حينما تضبط جوارحك، تضبط لسانك، تضبط عينك، تضبط يدك، تضبط دخلك، تنفق في سبيل الله، تحضر درس علم، تستمع إلى خطبة، تستوعبها، تنقلها إلى من حولك، لعل الله سبحانه وتعالى يرحمنا في هذا الشهر والذي بعده.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (١٨- ٢١) : الحب في الله - المحبة في الله عين التوحيد ، والمحبة مع الله عين الشرك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحبُّ في الله:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في خلقه، الموضوع اليوم الحب في الله.

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ٣١)

١ – علامة حبك لله اتباع منهج رسوله:

علامة محبتك لله اتباعك لمنهج النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء الآية: ١٩)

أي شيء تثاب عليه لا بد من دليل يؤكده.

٢ – علاقة العبد مع ربه علاقة حب وطاعة:

لكن النقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى جلّ في علاه شاءت حكمته أن العلاقة بينك وبينه علاقة محبة، عبر عنها العلماء بالمحبوبية، لو أراد لجعلك تطيعه قسراً، أرادك أن تأتيه طائعاً، أرادك أن تأتيه بمبادرة منك، أرادك أن تحبه، هو غني عن طاعتك، ولا تضره معصيتك.

((فلو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أتقى عبد من عبادي ما زاد في ملكي جناح بعوضة. ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أفجر عبد هو لي ما نقص من ملكي جناح))

[رواه الطبراني عن أبي موسى]

لا تنفعه طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، ولكن أراد أن يكرمنا، خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض، حينما أحبنا ابتداءً ينتظر أن نحبه، والدليل على ذلك:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية: ٥٤)

لما أحبنا أولاً ينتظر أن نحبه ثانياً، لذلك ما أراد أن تكون العلاقة بيننا وبينه علاقة قهر، ولا علاقة جبر، ولا علاقة إجبار، أراد أن تكون العلاقة بيننا وبينه علاقة محبة، الدليل:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

الدليل الآخر:

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين)

(سورة البقرة الآية: ٢٥٦)

لذلك الكافر يأكل ويشرب، والملحد يأكل ويشرب، وينام، ويتمتع بصحة عالية جداً، وله زوجة أولاد، وعنده بيت، ومركبة، معه أموال طائلة، وهو ينكر وجود الله، لا تنفعه طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، ولكن أرادنا أن نكون سعداء بالقرب منه، والدليل:

(إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية: ١١٩)

خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسعدهم، خلقهم لجنة عرضها السماوات والأرض.

٣ – محبة الله تستلزم الطاعة التامّة:

لكن أيها الإخوة، أنا لا أتمنى أن يتوهم الواحد منا أنه يحب الله من دون أن يأخذ موقفاً، دققوا:

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ)

(سورة الأنفال الآية: ٧٢)

كل دعوى المحبة لا قيمة لها، أين العمل ؟ هل أنت وقاف عند كلام الله ؟ هل يراك حيث أمرك ؟ هل يفتقدك حيث نهاك ؟ هل أنت مطيع لله ؟

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

(سورة يونس)

أيها الإخوة، في الإسلام عقائد، وفي الإسلام عبادات، وفي الإسلام معاملات، وفي الإسلام أخلاق، لكن شطر هذا الدين أن تحب الله.

((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[متفق عليه]

آيةٌ تقصم ظهر المدّعين للمحبة:

الآية الدقيقة، والله أيها الإخوة، هذه الآية تقصم الظهر :

(قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

الأشخاص.

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

الأشياء، الأشخاص، والأشياء.

(أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

(سورة التوبة الآية: ٢٤)

بين المبادئ والأشخاص والأشياء:

١ – عصرُ النبي عصر المبادئ، والأشخاص والأشياء في خدمة المبادئ:

في الحياة في مبادئ، وأشخاص، وأشياء، في عصر النبي عليه الصلاة والسلام المبادئ هي الأصل، الأشخاص والأشياء في خدمة المبادئ.

سيدنا عمر جاءه ملك، ملك الغساسنة جاءه مسلماً، رحّب به، النبي عليه الصلاة والسلام طلب النخبة، في أثناء طواف هذا الملِك حول الكعبة داس بدويٌّ من قبيلة فزارة طرف رداء هذا الملك، فانخلع ثوبه من كتفه، ملك عظيم جبار، التفت نحو هذا البدوي فضربه ضربة هشمت أنفه، هذا البدوي ذهب إلى عمر، وشكا جَبَلَة، سيدنا عمر استدعى جبلة، شاعر معاصر صاغ الحوار الذي جرى بينهما، سيدنا عمر قال لجبلة:

أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟

قال:

لست ممن يكتم شـــــيا   أدبت الفتى أدركت حقي بيديا

قال له سيدنا عمر:

أرض الفتى، لا بد من إرضائه مازال ظفرك عالق بدمائه

أو يهشمن الآن أنفـــــك وتنال ما فعلته كـــفك

هذا عصر مبادئ، الأشياء والأشخاص في خدمة المبادئ.

قال:

كيف ذاك يا أمير هو سوقة وأنا عرش وتاج

كيف ترضى أن يخر النجم أرضا ؟

فقال له سيدنا عمر:

نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها

أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناس لدينا أحراراً لدينا وعبيدا

فقال جبلة:

كان وهماً ما جرى ف ي خلدي أنني عندك أقوى وأعز

أنا مرتد إذا أكرهتني.

قال له:

عنق المرتد بالسيف تحز

عالم نبنيه، كل صدع فيه يداوى وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى

هذا عصر مبادئ، والأشخاص والأشياء في خدمة المبادئ.

٢ ـ نحن في عصر الأشخاص والأشياء:

نحن في عصر آخر: الأشياء والأشخاص، في أول العصر الأشخاص والأشياء في خدمة المبادئ، وفي عصر آخر المبادئ والأشياء في خدمة الأشخاص، هذا عصر درجة ثانية.

٣ ـ أخطرُ عصرٍ أن تكون المبادئ والأشخاص في خدمة الأشياء:

لكن العصر الخطير أن تكون المبادئ والأشخاص في خدمة الأشياء، حتى تكون قيمة المرء الآن مساحة بيته، نوع مركبته، جماله، أناقته، ثمن ثيابه، قيمة المرء متاعه، المبادئ والأشخاص في خدمة الأشياء، إذا وصل المجتمع إلى هذا المستوى فاقرأ عليه السلام، المبادئ لا قيمة لها أبداً، والأشخاص لا قيمة لهم، الأشياء لها كل شيء.

فلذلك:

(قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

هؤلاء الأشخاص.

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ)

الطريق إلى الله ليس سالكاً، كيف ؟

(وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

بيت بنظام الإيجار القديم، أنت مستأجره بمئة ليرة بالشهر، وصاحبه بحاجة إليه، القانون معك، فلا تعبأ به، هذا المنزل أحب إليك من تطبيق أمر الله عز وجل بردِّ البيت إلى صاحبه.

أحياناً له زوجة يحبها، لا تريد أن تتحجب، ولكنه حريص على رضائها، فلم يعبأ بدينها، بل أراد أن تكون عنده زوجة يفخر بها، ويسعد بها، ولم يعبأ بدينها.

فلما لما يكون الشيء أغلى عند الإنسان من الله فتيقنوا أن الطريق إلى الله ليس سالكاً.

(فَتَرَبَّصُواْ)

(فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

حديث عظيم في حلاوة الإيمان:

١ – أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا:

شيء دقيق جداً، لما قال النبي الكريم:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

[متفق عليه عن أنس]

أي أن يكون الله في قرآنه، والنبي في سنته أحب إليه مما سواهما، متى ؟ عند التعارض، حينما تتعارض مصلحتك مع الحكم الشرعي القرآني، أو حينما تتعارض مصلحتك مع الحكم الشرعي النبوي، إن فعلت هذا فالطريق مسدود، والله عز وجل عزيز، ولم يقبل منك أن تؤثر عليه شيئاً، هذا الحديث أيضاً قريب من هذه الآية، أن يكون الله في قرآنه، ورسوله في سنته عند التعارض، حينما تتعارض مصلحتك مع الحكم الشرعي، إن آثرت الحكم الشرعي أثبت أنك تحب الله أكثر من أي شيء آخر.

لذلك:

(قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

الفسق يحول بينكم وبين الاتصال بالله عز وجل، وبشكل أو بآخر إذا كانت الشهوة أغلى عليك من الله فالطريق إلى الله ليس سالكاً، الله عزيز، وقد وقعتَ في الشرك.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان الآية: ٤٣)

هذه الشهوة آثرتها على رضاء الله عز وجل، فلذلك:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

لذلك ذاق طعم الإيمان، الإيمان له طعم، والإيمان له حقيقة، إدراك حقائق الإيمان سهل جداً، يحتاج إلى فكر، وإلى قراءة، وكتابة، تقرأ فتفهم، فتحفظ، لكن أن تذوق حلاوة الإيمان لابد أن تدفع الثمن باهظاً، وهو طاعة الله عز وجل.

٢ – وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ:

لذلك:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

المؤمن يحب المؤمن، ولو كان فقيراً وضعيفاً، ويتبرأ من غير المؤمن، ولو كان قوياً وغنياً، هذا الولاء والبراء دليل المحبة.

٣ – وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ:

العلامة الثالثة التي فيها طعم الإيمان وحلاوة الإيمان:

((وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

إخواننا الكرام، الإنسان يحب أن يعتمد عقيدة صحيحة، فكر نير، أدلة صحيحة، أدلة قطعية، عنده تفسير لكل شيء، هذا شيء متوافر في الإسلام.

الإنسان عقل يدرك وقلب يحبّ:

الإسلام العظيم قدم لك تصورا عميقا، دقيقا، متناسقا للكون، والحياة، والإنسان، لكن أنت أيها الإنسان لست عقلاً يدرك فقط، أنت عقل يدرك، وقلب يحب، الجانب أساسي من جوانب شخصيتك قلب يحب، أنت بحاجة إلى أن تحب الله، وأن يحبك الله.

مرة حدثنا دكتور في الجامعة هو أستاذ في علم النفس، قال: الإنسان الذي لا يجد حاجة إلى أن يُحِب، أو إلى أن يُحَب ليس من بني البشر، لذلك يمكن أن تحب زوجتك، يمكن أن تحب امرأة لا

تحل لك، يمكن أن تحب طعاماً، أن تحب بيتاً، أن تحب مركبة، لكن إذا أحببت الله عز وجل كنت في أعلى درجات الإيمان.

لذلك قالوا: هناك حب في الله، وحب مع الله، الحب في الله عين التوحيد، والحب مع الله عين الشرك.

من علامات حب الله:

١ ـ حب الله ورسوله والصحابة والمؤمنين:

دخلنا الآن في الموضوع، الحب في الله، إنك تحب الله جل جلاله من علامات محبتك لله أنك تحب رسوله، حب رسوله حب في الله، وحب أصحابه الكرام جميعاً حب في الله، وحب العلماء الصادقين الربانين المخلصين حب في الله، وحب زوجتك وأولادك حب في الله، وحب المساجد حب في الله، حب القرآن الكريم حب في الله.

٢ ـ بغضُ غير المؤمن والفاسق:

أما أن تحب صديقاً غنياً بعيداً عن الدين، لكنه يغدق عليك من أمواله الطائلة، هذا حب مع الله، وهو عين الشرك.

إيّاكم والشركَ الخفيَّ:

لذلك قال سيدنا علي: << الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور >>.

إنسان منحرف تحبه، هذا نوع من الشرك، أو أن تبغض على عدل، واحد نصحك بأدب، لكن ما تحملت هذه النصيحة فأبغضته، إنك في الحالة الأولى أشركت مع الله إنساناً ليس مستقيماً، لكنه يغدق عليك من أمواله، وفي الحالة الثانية لأن هذا الإنسان الذي نصحك لعله جرحك، فثأرت منه، وأشركت نفسك مع الله، الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور و أو أن تبغض على عدل.

هذا هو الحبُّ الحقيقي:

أيها الإخوة، الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، قل لي من تحب أقل لك من أنت، المؤمن يحب الله، يحب الرفيق الأعلى، يحب طاعته، قال النبي الكريم:

((لو كنت متخذ من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي، ولكن أخ وصاحب في الله))

المؤمن يؤثر الله على كل شيء.

((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، من ولده، ووالده، والناس أجمعين))

[متفق عليه]

سيدنا عمر قال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي وولدي ومالي إلا نفسي التي بين جنبي، قال له: كلا يا عمر، إلى أن قال له: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من مالي، وولدي، ونفسي التي بين جنبي، قال: الآن يا عمر.

الدين نصفه محبة، والحب في الدين يجعلك كالمرجل، الحب في الدين يجعلك تذوق حلاوة الإيمان، من دون حب الدين نصوص، وتقاليد، وعادات، وأشياء مملة في النهاية.

الصحابة الكرام: أنا لا أتصور امرأة تتفقد رسول الله، يبلغها أن النبي قُتل ، فتنطلق إلى ساحة المعركة، لا تلوي على شيء، رأت زوجها مقتولاً، فلم تعبأ، رأت أباها مقتولاً، فلم تعبأ، رأت ابنها مقتولاً، لم تعبأ، رأت أخاها مقتولاً، تقول: ما فعل رسول الله ؟ إلى أن وقعت عينها عليه، فقالت: يا رسول الله كل مصيبة بعدك جلل، هذا هو الحب.

الحب أيها الإخوة يفعل المستحيل، الحب يجعل الواحد كألف، وبلا حب الألف كأف.

المحبة في الله عينُ التوحيد، والمحبة مع الله عين الشرك:

بصراحة إذا ما دمعت عين الإنسان إطلاقاً، ولا خشع قلبه إطلاقاً، ولا ناجى ربه إطلاقاً، ولا رأى أنه ليس كما ينبغي، فهناك مشكلة عنده كبيرة جداً.

أنت عقل يدرك وقلب يحب، وأرقى أنواع الحب أن تحب الله، إن أحببت الله فأنت حر، الحمد لله الذي أخرجنا من ظلم الأوثان إلى عدل الإسلام، لأن الصنم وثن، يسأله وهو حجر لا يقدم ولا يؤخر، أما الله عز وجل فهو معك أينما كنت، يسمعك، ويلبيك، ألم يقل الله عز وجل:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان الآية: ٧٧)

حينما تدعوه تؤمن بوجوده، وإذا دعوته تؤمن أنه يسمعك، وإذا دعوته تؤمن أنه قدير على كل شيء، وإذا دعوته تؤمن أنه يحبك.

فلذلك أيها الإخوة، بين أن تحب في الله، وهو عين التوحيد، وبين أن تحب مع الله، وهو عين الشرك، ومحبة الله بلا دليل لا قيمة لها إطلاقاً، كل يدعي وصلاً بليلى، دليلها أن تحب الله، وأن تتبع منهج نبيه:

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (١٩- ٢١) : قبول العمل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لقبول العمل:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في خلقه، الموضوع اليوم حول قبول العمل.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا)

(سورة الإسراء)

١ – لكلّ إنسان حركة في الحياة:

أنت لك عمل، لك حركة في الحياة، شئت أم أبيت، أودع فيك الشهوات، هذه الشهوات تدفعك إلى العمل، شهوة الطعام والشراب، وشهوة الجنس، وشهوة تأكيد الذات ، هذه تجعلك كائناً متحركاً، هذا العمل متى يقبل ؟ ومتى لا يقبل ؟

٢ – احذرْ أن تكون من هذا الصنف:

المصيبة الكبيرة كما قال الله عز وجل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

ومن الناس يدري، ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه، ومنهم من يدري، ولا يدري أنه يدري فهذا غافل فنبهوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلموه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه يدري فهذا شيطان فاحذروه:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

٣ – وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا

الآية هنا:

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا)

سعيها الخاص، ما قال الله عز وجل وسعى لها، لو قال الله عز وجل: وسعى لها، فأيّ سعي يكون مقبولا، لكنه قال:

(وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

كأن تقول: لكلية الطب علاماتها، لو قلت: إن لكلية الطب علامات، فأيّة علامة تدخلك هذه الكلية، أما إذا قلت: إن لهذه الكلية علاماتها، أيْ لها علامات خاصة.

لذلك:

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

هو السعي الذي أراده الله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٠٢)

قال علماء التفسير: حق التقوى أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره، وأن تذكره فلا تنساه .

أيها الإخوة الكرام،

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج الآية: ٧٨)

٤ – الخسارة الكبيرة: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا

لا بد للوصول إلى النجاح، وإلى قمة النجاح حتى تنجو، والشيء المؤلم جداً أن تنظر إلى تاجر استورد صفقة، وحتى وصلت البضاعة إلى الميناء كاد يموت من التعب والهم، والدفع، والإجراءات المعقدة، فلما وصلت جهد في بيعها، بعد أن باعها، وجمع ثمنها إذا هو خاسر فيها خسارة كبيرة، أقعدته، الخسارة مؤلمة جداً، قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا)

(سورة الفرقان)

عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

يا ترى هل قبل الله عملنا ؟ هل قبل الله صلاتنا ؟ هل قبل الله قيامنا ؟ هل قبل الله أذكارنا ؟ هل قبل الله تلاوتنا ؟ هل قبل الله صدقاتنا ؟ متى يقبل العمل ؟ المفارقة:

(فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا)

أي مقبولا.

الآية الثانية:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

اتجه سعيهم جهة لا يقطفون منها أية ثمرة.

كنت أضرب مثلا دائماً: أن إنسانا له مبلغ كبير جداً في حلب، وركب قطارا، قد يرتكب أخطاء كثيرة، قد يقطع بطاقة من الدرجة الأولى، ويخطئ، فيركب في الدرجة الثالثة، هذا خطأ، لأنه ضيّع فرقَ التذكرة، وقد يجلس في مكان فيه شباب ليسوا كما ينبغي فأزعجوه جداً في هذا الطريق، وقد يجلس بعكس سيرِ القطار فيصاب بالدوار، وقد يتلوى من الجوع، ولا يعلم أن في المركبة مطعما، هذه كلها أخطاء، لكن القطار في طريقه إلى حلب، وسوف يصل في الوقت المناسب، ويقبض المبلغ الذي وُعِد به، أما الخطأ الذي لا يُغتفَر أن يركب قطار مدينة درعا، وقبض المال ليس هناك، ولو جلس في الدرجة الأولى، والقطار مكيف، والطعام طيب، لكن لا شيء ينتظره.

لذلك البطولة أن يأتي سعيك عند الله مقبولاً، أن يأتي سعيك عند الله مشكوراً ، أن تأتي حركتك عند الله مرضيا عنها، هذه البطولة.

متى يُقبل العمل ؟

السؤال: متى يُقبل العمل ؟ قال تعالى في بعض أدعية القرآن:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)

(سورة النمل الآية: ١٩)

١ – أن يكون العملُ مرضِيًّا عند الله خالصا صوابا:

العمل الخالص لا يتأثر بمدح ولا بذمٍّ:

وقف علماء التفسير عند كلمة (ترضاه)، متى يرضى الله عن العمل ؟ قالوا: يرضى الله عن العمل إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله.

وقفة متأنية عند الإخلاص، دقق: إذا كان عملك لا يتأثر أبداً بالمديح ولا بالذم، لا يزداد عند المديح، ولا يقلّ أو يلغى عند الذم فأنت مخلص.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا)

(سورة الإنسان)

إذا كان عملك خدماتك إنفاقك لا تتأثر بالمدح والذم فهذا هو الإخلاص.

سيدنا الصديق كان يعطي أحد الصحابة مساعدة وفيرة، هذا الذي كان يعطيه المساعدة هو الذي روّج خبر الإفك على ابنته، وهذا شيء لا يحتمل، وألم لا يحتمل، فلما أوقف هذه المساعدة جاءه عتاب من الله:

(وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)

(سورة النور الآية: ٢٢)

بكى بكاءً شديداً، وقال: << بلى أحب أن يغفر الله لي >>.

إذا كان عملك لا يتأثر إطلاقاً لا بالمديح ولا بالذم، إن مُدِحت أو إن ذُممت فسيان، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((إذا لم تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شئت))

[رواه البخاري عن ابن مسعود]

الحديث له ظاهر ليس هو المقصود، المعنى الدقيق: إذا كنت مخلصاً لله، وفعلت عملاً يرضي الله، وأنت واثق من أنه يرضي الله فلا تعبأ بكلام الناس، مدحوا أو ذموا.

(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأنعام)

لكن !!! رحم الله عبداً جبّ المغيبة عن نفسه:

لذلك العمل يقبل إذا كان خالصاً، وعلامة الإخلاص أن العمل لا يتأثر إطلاقاً لا بالمديح، ولا بالذم، هدفك واضح، تبتغي مرضاة الله عز وجل، كلام الناس لا قيمة له إطلاقاً، ولكنني أقول: رحم الله عبداً جبّ المغيبة عن نفسه.

عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ قَالَتْ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ، فَانْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا))

[البخاري ومسلم]

بيّن، وضّح، لا أتمنى أن تفهموا من كلامي أنك واثق من استقامتك، ومن عملك الطيب، فلا تعبأ بكلام الناس إطلاقاً، لا، رحم الله عبداً جب المغيبة عن نفسه، وضح، بيّن، والبطولة ألا تعمل عملاً له تفسيران، أحدهما ليس في صالحك.

أنت في محل صديقك، ومعك ٥٠٠ ليرة، وأنت مضطر أن تصرفها إلى خمس ورقات من فئة مئة ليرة، وصديقيك غادر المحل لدقائق، فأنت فتحت الدرج، ودفعت الـ٥٠٠، وسحبت خمس ورقات من فئة مئة ليرة متفرقة، دخل وفاجأك ورآك تسحب الـ٥٠٠، أنت بريء ١٠٠%، أنت صادق ١٠٠% ، طاهر ١٠٠%، لكن الذي رآه أنك تأخذ الـ٥٠٠، ولم يرَ أنك وضعت الـ٥٠٠ الأولى، لا تعمل عملاً يحاج إلى تفسيرين، اعمل عملاً واضحاً.

لذلك المقولة الرائعة: البيان يطرد الشيطان، لذلك حينما أقول: لا تعبأ بكلام الناس، لا أقصد أن تهمل سمعتك، رحم الله عبداً جب المغيبة عن نفسه، فالإخلاص يعني أن العمل لا يزيد، ولا يقل بالمديح أو الذم، هدفك واضح، والوسيلة واضحة.

٢ – لا يزداد العمل أمام الناس، ولا يقلّ في البيت:

الآن العلامة الثانية: العمل لا يزداد أمام الناس، ولا يقل وحدك في البيت، هذه من علامة الإخلاص، هذه علامة ثانية.

٣ ـ العمل الطيب يرفعه الله إليه:

العلامة الثالثة: أن الإنسان حينما يعمل عملاً خالصاً لله، واثق من أن نيته طيبة هذا العمل رفع إلى الله، الله عز وجل كريم، لا بد من أن يثيبك عليه، ثاب بمعنى رجع، فأنت رفعت عملاً إلى الله، ثواب الله لك على هذا العمل أنه يملأ قلبك سكينة، وتشعر براحة.

صدقوا أيها الإخوة، هناك قصص كثيرة جداً لما تخدم إنسانا لوجه الله لا تبتغي سمعة، ولا مديحاً، ولا ثناءً، ولا شكراً، ولا بطاقة، ولا تنويها في الصحيفة، حينما تخدم إنساناً بأعلى درجة من الخدمة، وتبتغي بهذا وجه الله فلا بد من أن تسعد، لأن الله عز وجل يثيبك على هذا العمل سكينة في نفسك، هذه السكينة تسعد بها لو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هذا العمل يقبل إذا كان صواباً، إذا كان خالصاً، خالصاً فيه إخلاص.

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا)

(سورة الزمر الآية: ٢)

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

(سورة الزمر الآية: ٢)

أنت لك جوارح، ولك قلب، تغض البصر بالعين، واللسان ينضبط، والأذن لا تستمع إلى غناء، والرِّجل لا تمشي إلى منكر، واليد لا تؤذي، ولا تعتدي على أحد، لك جوارح، ولك أعضاء، هذه كلها منضبطة بمنهج الله.

أربعة أدعية خطيرة:

لذلك مرة اطلعت على كتاب في المقدمة أربعة أدعية، أول دعاء:

الدعاء الأول:

" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد اسعد مما علمتني مني ".

شيء مؤلم جداً أن تشرح حديثا، أو آية، تتفنن في شرحها، وفي تحليلها، وفي إراد الأدلة عليها، ويأتي إنسان يستمع لهذا الشرح ويطبقها، ويقطف ثمارها، فيكون أسعد منك بما علمت.
" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد اسعد مما علمتني مني ".

الدعاء الثاني:

" وأعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك، ألتمس به أحداً سواك ".

هناك كلام يرضي الله، أما حينما تقوله لا تبتغي به وجه الله، تبتغي به أحداً سوى الله.

الدعاء الثالث:

" اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك ".

أحينا يتزين الإنسان بثياب بيضاء، ويتعطر بعطر معين، ويمسك مسبحة، ويضع على رأسه قبعة، ومظهره مظهر صلاح، ووجهه يتلألأ نورا، لكن هو ليس كذلك.

" اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك ".

الدعاء الرابع:

آخر دعاء، وهو أخطر واحد:

" اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك ".

لا أكون أنا قصة يتناقلها الناس، ويتعظون بها.

" اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك ".

لذلك أيها الإخوة، العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، صواباً ما وافق السنة.

قد يخلو الإنسان بفتاة كي يهديها إلى الله، هذا خلاف السنة، أنت لست واثقا من نفسك.

((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))

[الترمذي]

لا دعوة إلى الله مع خلوة، هذه الدعوة مرفوضة.

أحياناً يقال: (يانصيب خيري)، هذا ليس خيري، وأحيانا حفلة غنائية ساهرة يرصد ريعها للأيتام، لا، ما مِن شيء من هذا القبيل، العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، هذا الذي يقبل عند الله عز وجل.

فلذلك أيها الإخوة، العمل عمل، الوقت وقت، الجهد جهد، الإنسان قد يدرس ولا ينام الليل، لكنه لا ينجح، فيحترق قلبه، يقول لك: تعبت كثيرا، لكن ما نجحت، الإخفاق متعب، مؤلم، يجرح النفس، فأنت عملت عملا، أتيت إلى المسجد، وصمت، تركت الطعام والشراب، أيرضيك ألا يقبل العمل ؟ لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[رواه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة]

لذلك:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام، دانق من حرام))

[ورد في الأثر]

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجدي هذا))

[ورد في الأثر]

وأقول لك بكل صراحة: أنت تعلم علم اليقين ما إذا كان عملك مقبولاً أو غير مقبول، تشعر باتصال بالله إنْ كان مقبولاً، تشعر بالسكينة، تستغني عن مديح الناس لو أن الإنسان لا يبتغي وجه الله، وعمل عملا صالحا فهو يحاول أن يتحرش بالناس حتى يسمع المديح، عنده حاجة إلى المديح، هذا نقطة ضعف في الإنسان، أن يستجدي المديح، لو دعوتَ الناس إلى وليمة، وتعبت فيها كثيرا، تقول: إن شاء الله أعجبكم الأكل ؟ ما شاء الله على هذا الأكل، يحب من يمدحه، تستفز الناس كي يمدحوك، هذا مرض نفسي، دائماً يثير تساؤلا حتى يسمع المديح، فيكون إخلاصه ضعيفا، ولو أنك عملت عملاً يرضي الله، ولم يذكره أحد فأنت لا علاقة لك.

لذلك العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً، وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله وصواباً ما وافق السنة.

احرص أن يكون عملك مقبولاً عند الله:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((استحيوا من الله تعالى حق الحياء، قلنا: يا رسول الله إنا لنستحي من الله يا رسول الله، والحمد لله، قال: ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء ـ دقق ـ أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، وآثر الآخر على الأولى، فمن فعل ذلك فقد استحيى يعني من الله حق الحياء))

[أخرجه الترمذي]

اهتم بعملك أن يكون عند الله مقبولاً، اهتم بالإخلاص، واهتم أن يكون وفق السنة، فهناك أعمال صالحة الآن فيها اختلاط، فيها كشف عورات، فيها مزاح لا يرضي الله، ويقولون: هذا ضمن نطاق العمل الصالح، هذا لا يجوز، العمل لا يقبل عند الله إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٢٠- ٢١) : قانون لقاء الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١١-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

قانون لقاء الله:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس السنن القرآنية، والقانون اليوم قانون لقاء الله تعالى.

١ – آية قرآنية اصلٌ في الموضوع:

يقول الله عز وجل:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠))

(سورة الكهف)

قانون:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠))

(سورة الكهف)

٢ – ماذا يعني لقاء الله عزوجل ؟

لقاء الله عز وجل معنى واسع جداً، فهو يعني أن تتصل به، أن تقبل عليه، أن تسعد بقربه، أن تشتق من كماله، أن يملأ الله قلبك نوراً فترى به الحق حقاً والباطل باطلاً، أن يملأ الله قلبَك بهذا الاتصال أمناً، فلا تخشى من أحد، ولا ترتعد أمام أحد، أن يملأ الله قلبَك بهذا الاتصال عزاً، فلا تذل لأحد، ولا تخضع لأحد، ولا تتضعضع أمام أحد.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ (١١٠))

(سورة الكهف)

الإنسان مخلوق حادث ضعيف طارئ فانٍ يلتقي مع خالق السماوات والأرض من خلال الاتصال به.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ (١١٠))

(سورة الكهف)

لقاء الله له ثمن.

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا

كلمة:

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

واسعة جداً، هناك أب صالح وأم صالحة، و زوجة صالحة، وابن صالح، وعامل صالح يتقن عمله، فيأخذ أجره حلالاً، وهناك في مزارع صالح، و طبيب صالح، ومحامٍ صالح، ومهندس صالح، كلمة صالح تعني أن الإنسان ما ظهر منه الأذى، ولا ابتز أموال الناس، ولا أرعبهم، ولا أدخل على قلوبهم الرعب، ولا احتال عليهم، ولا كذب عليهم، ولا أخذ ما ليس له، أعطى وأخذ، والأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا، هو كمؤمن أخذ ثمن هذه السلعة، لكن أعطاك سلعة جيدة، أخذ ثمن هذه الخدمة، لكن قدم لك عملا طيبا، وكم من إنسان يقدم شيئًا سيئًا، ويأخذ أجرا جيدا ؟ وكم من إنسان يحاول أن يخفي العيوب ؟ وكم من إنسان يقدم صفات للسلعة ليست صحيحة ؟ وكم من إنسان يجمع أموالا من طريق غير مشروع.

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

هناك أب صالح ربى أولاده اهتم بدينهم، بعقيدتهم، بأخلاقهم، وهناك أم صالحة اهتمت ببناتها، بأخلاق بناتها، بتزويج بناتها، وهناك جار صالح لا يؤذي جاره، وجار السوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، وهناك إمام سوء، إنْ أحسنت فلن يقبل، وإن أسأت فلن يغفر.

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

يمكن لإنسان أن يعاملك ثلاثين سنة فتضغط كل أخلاقه، وكل تصرفاته، وكل معاملاته بكلمة واحدة: يرحمه الله، كان صالحا، كما يمكن لإنسان أن يعاملك ثلاثين سنة، ويموت، لو لم تلفظ بلسانك: لا يرحمه الله، تقول: أساء إلي، باعني بيعة ما انتصحت بها، عاملني معاملة قاسية، احتال علي، أخذ شيئًا ليس له، مستحيل أنْ يقبلك الله.

إنّ عظمة هذا الدين أن الله عز وجل مستحيل أن يقبلك إذا لم تكن محسنا لعباده، أما الأقوياء فيقبلوك الله، فيكفي أن تعمل عملا تتقرب به إلى قوي، يكفي أن تمدحه فقط، أو تبالغ بالإساءة للناس، أنت عنده قوي، ومن السهل أن تتقرب إلى قوي، القضية سهلة، بمديحه فقط، أو بالولاء له، أما الله عز وجل فلا يمكن أن يقربك منه، ولا يمكن أن يتجلى على قلبك، ولا يمكن أن يقبلك، ولا

يمكن أن يسمح لك أن تتصل به إذا لم تحسن إلى عباده، لذلك المؤمن له ميزة كبيرة جداً، إن حدثك فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف، المؤمن وفي.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ (١١٠))

(سورة الكهف)

مستحيل أن يتصل الغدّار بالله، دقق، هناك صلة، وهناك أداء صلوات، والفرق بينهما كبير، فمهما كان الإنسان منحرفا في أخلاقه فإنه يستطيع أن يتوضأ، ويصلي، ويقرأ الفاتحة وسورة، ويسجد، لكن لا يقدر أن يتصل بالله عز وجل، يقدر أن يقف في الصلاة، ويقرأ، ويركع ويسجد، لكن لا يقدر أن يتصل بالله، إذا كنت مسيئًا لخلقه، مغتصبًا بيتًا ليس لك، تجارتك ما فيها صدق، ما فيها أمانة، بنيت مجدك على أنقاض الناس، والإنسان يعرف نفسه الفطرة.

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥))

(سورة القيامة)

يمكن أن تحج، وأن تعتمر، وأن تصلي، وأن ممكن، لكن أن تحب، وأن يحبك الله، وأن يكون قريبا منك، أن تبكي في الصلاة، ويخشع قلبك، لكن إذا لم يكن عملك صالحا، ودخلك حلالا وبيتك إسلاميا فهذا هو الأهمّ .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

الطريق إلى الله سهلٌ:

أيها الإخوة الكرام، الإله العظيم الطريق إليه سهل جداً، الأقوياء أما العالم فلا أمل بأن تلتقي معهم، عندهم ألف حاجب وحاجب، وألف عقبة وعقبة، أما إلهنا فيكفي أن تخدم له عباده، يكفي أن تكون ناصحا أمينا، صادقا مع الناس، حتى يفتح لك الله باب رحمته، فتشعر بقرب من الله عز وجل.

للتقريب: هناك مثل أرويه مرات عديدة، أن مجندا التحق بالخدمة الإلزامية من يومين، فرزوا إلى فرقة، والفرقة ثلاثة ألوية، على رأسها قائد الفرقة، لواء أركان الحرب، هذا المجند الغر في كل جيوش العالم ليس في إمكان أن يقابل لواء أركان الحرب القائد العام للفرقة، هناك تسلسل، يقابل العريف، ثم العريف أول، ثم مساعد، ثم مساعد أول، ثم ملازم، ملازم أول، ثم نقيب، ثم، ثم مقدم، ثم عقيد، ثم عميد، ثم لواء... فهناك تسلسل، أما هذا المجند الغر الذي التحق من يومين إذا رأى في مسبح ابن اللواء يكاد يغرق، وأنقذه، وخاطر بنفسه حتى أنقذه فإنه يدخل مكتب لواء أركان حرب من دون إذن، ويحضر له فنجان قهوة، ويجلسه إلى جانبه، ويكرمه، لأنه عمل عملا صالح، هذا المثل للتقريب.

العمل الصالح ثمن الجنة:

تخدم عباد الله، تنصحهم، تكون صادقا معهم، تبيعهم بضاعة جيدة بسعر معتدل، أنت موظف يأتيك مراجع من حلب، تقول له: على عيني، تعال غداً، غداً ينزل بفندق فيدفع ألف ليرة، تخدم المواطن بأن لا تضايقه، لا تخترع له مشكلة من عندك.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

عندك زوجة تقول: أبوها ميت، وأمها ميتة، مقطوعة، والله أمسح بها الأرض، لكن لها رب ينتقم منك، أنت زوج صالح، أب صالح، جار صالح، موظف صالح.

أنت طبيب صالح، والمريض لا يحتاج كل هذه التحاليل، لا يحتاج إلى إيكو، لا يحتاج مرنان. كان النبي مع أصحابه في سفر، فأرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم:

((عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك ذلك، فقال: أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

العمل الصالح ثمن لقاء الله عز وجل، وتعرف العمل الصالح بالفطرة.

هناك قصص لا تعد ولا تحصى، إنسان تألق عند الله تألقا كبيرا جداً، فقط لأنه خدم الناس، صدق معهم، كان أمينا، أدى الأمانة إلى أهلها.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

هذا أعظم إنجازٍ:

أعظم شيء أن تتصل بالله، أعظم إنجاز أن تصل إلى الله، وأعظم إنجاز أن يكون الله راضيا عنك، وأعظم إنجاز أن تشعر أن الله معك، وأعظم إنجاز أن تشعر أن الله يدافع عنك، يؤيدك، ويقربك، ويتولى أمرك.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (٢٥٧))

(سورة البقرة)

أعظم إنجاز أن يحبك الله.

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ (٥٤))

[سورة المائدة]

والله مرة سمعت من رجل ألقى كلمة في عقد قران ذكر حديثًا يخاطب فيه النبي عليه الصلاة والسلام سيدنا معاذا، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ:

((يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ))

[سنن أبي داود]

والله ما رأيت في حياتي إنجازا أعظم من أن يحبك الله ورسوله، الأمر بيدك، كن صادقا، كن أمينا، كن عفيفا، كن عفوًّا، كن غفورا، كن خادما لمن حولك، سيد القوم خادمهم، وقد كان النبي عليه الصلاة السلام في مهنة أهله، وكان مع أصحابه في سفر، وأرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم:

((عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك ذلك، فقال: أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

تواضع، اخدم من حولك، انصح من حولك، لا تستعلِ عليهم، لا تبتز أموالهم، لا تبن مجدك على أنقاضهم، لا تبن عزك على إذلالهم، لا تبن غناك على فقرهم.

الدين هو المعاملة خارج المسجد:

لما يشعر الإنسان أن هذه الحاجة مفقودة، وعندك منها قطعة، وهذا الإنسان مضطر أن يشتريها، فيبيعها له أربعة أضعاف، هذا البيع بيع ضرورة، ورفع سعر القطعة، فلا يرحمه، أخذ الآلة، وما فتح الغلاف، فندم عليها، فتقول: لا تُرجع، أو تخسر ألف ليرة، هذه الألف أخذتها بغير حق.

والله أيها الإخوة الكرام، أقسم لكم بالله ؛ الدين ليس بالجامع، الدين في الطريق، بالمعمل، بالدكان، بالدائرة الحكومية، هذا المواطن يمكن أن تخدمه ببساطة فلا تخدمه، تريد أن يضايقه، يطلب منه وثيقة لا يحتاجها، يريد أن يشعره أنه ذو منصب كبير، أستطيع أن أضايقك، لكن الله يضايقك أيضاً، لذلك اخدمه.

مرة راكب مع رجل من بلد شقيق، ورجل منعم، اخطأ في القيادة فوقع حادث لسيارة ثانية، الآن هذا السائق سوف يرفع صوته، ويتجاوز حدوده، هذه العادة ألفناها هكذا، نزل السائق، نظر إليه، رآه من لبنان، في أثناء أحداث لبنان، قال له: مسامح، لا أريد شيئًا، هذا الرجل الصديق هطلت دمعة من عينه على خده، لاحظتها أنا، وضعه المادي جيد جداً، ليس بحاجة أن يوفر خمسة آلاف، قلت له: لماذا بكيت ؟ قال: لأني من سنتين رجلٌ سوري مع أهله محجّبات أحدث لي مشكلة في السيارة، فما

أحببت أن أفسد عليه نزهته، قال له: أنت مسامح، هذه المعاملة ما ضاعت عند الله، بعد بسنتين الخطأ كرِّر في الشام، وقال له: مسامح، الله لا يضيع عنده شيء.

والله أكاد أقول لك: لو أنقذت نملة بالمغسلة، وأنت تريد أن تتوضأ، فتحت الحنفية، فأنزلتها، أنت تحاسب عليها، اتركها تنفذ بريشها، لو أنقذت نملة لا تضيع هذه الحسنة عند الله عز وجل، لو نصحت إنسانا بكلمة، لو قدمت خدمة، لو توقفت لإنسان كبير في السن بمركبة عامة، لو رأيت امرأةً متقدمة في السن واقفة تنتظر دورها، فقلت لها: تعالي يا أختي، وخذي دوري، أنا أقف محلك.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

يا أخي ذوق طعم القرب من الله اخدم له عباده، لا تقل له: أنت من أين ؟ هذه ألغها، هذا عبد لله، وهو عبد من عباد الله عز وجل أنت خدمته لله عز وجل.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (٢٤٥))

(سورة البقرة)

من الذي يقوم بعمل صالح تجاه هرة، تجاه كلب أحياناً، تجاه مخلوق.

أيها الإخوة الكرام، هذه الآية دقيقة جداً:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (١١٠))

(سورة الكهف)

الأمر بيده، هو المعطي، الناس يرون ملايين الآلهة الآن، والشرك يحطم أعصابك، ترضي هذا فيغضب ذاك، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

في بيتك، بمحلك، بتجارتك، فإنه يمكن أن تجد فأرة في علبة الزيت، ولا أحد يعلم بذلك، تحضر ملقطا وتنزع هذه الفأرة من الزيت، وتبيعها بيعا عاديا، لكن الله يراقبك، هذا الزيت صار للصابون، ليس للاستخدام البشري ولما لا تؤذي مخلوقا.

أيها الإخوة، لما تخاف الله فيما بينك وبينه فلن يخيفك من أحد، حتى أطمئنك، لن يجعلك تتضعضع أمام أحد ما دمت خفت منه، أما إذا لم تخف منه الله فعنده وسائل، وعنده أساليب، وعنده تصرفات ينخلع قلبك خوفًا منها.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

دينك ليس في المسجد، أقلّ مكان يظهر فيه الدين المسجد، أقلّ مكان أنت فيه جالس تسمع درسا، أو تصلي، أما في البيع والشراء فشعرت هذا الإنسان غشيم لا يعرف، فتبيعه أي بضاعة، وبأي سعر، وبأسوأ مواصفات، لكن الله يشاهد.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

نصحت، صدقت، عاونت، بينت، بينت العلة.

مرة قال لي أخ لم يكن يعرف الاستقامة، قال لي: عندي سيارة فيها عيب خطير في المحرك، فبعتها وألبستها لواحد، واعتبر نفسه ذكيا، هذا العيب ما ظهر مع الشخص، مظهرها جيد، قال لي: بعد يومين أحضرت سيارة جديدة من طرطوس، قال لي: اخترتها من أفضل سيارة، بعد يومين كان بمكان بدمشق، صدمته حافلة كبيرة فسحقت السيارة، فغضب غضبًا لا حدود له، قلت: تذكر ماذا قلت لي منذ يومين، أنك بعتَ سيارتك، وألبسته إياها، الله كبير، من هو الغبي ؟ كل إنسان ما أدخل الله في حساباته، ففيه كتلة غباء، وإذا لم تدخل الله في حساباتك فلست ذكياً.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠))

(سورة الكهف)

شروط قبول العمل الصالح:

أيها الإخوة الكرام.

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

قال العلماء العمل الصالح لا يقبل غلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله وصواباً ما وافق السنة.

الإخلاص:

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (١١٠))

(سورة الكهف)

(وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠))

(سورة الكهف)

الشرك الخفيّ والشرك الجليّ:

عندنا شرك خفي وشرك جلي، الشرك الجلي في العالم الإسلامي غير موجود، وليس عندنا صنم نعبده من دون الله، وهناك شعوب عندها أصنام، وهناك شعب يعبد البقر، وشعب يعبد الحجر، والشمس القمر، نحن من فضل الله بعد مجيء هذه الرسالة فليس عندنا شرك جلي، لكن عندنا شرك خفيّ، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الشرك الخفي أن ترى مع الله أحدا، الشرك الخفي أن ترضي مخلوقاً في معصية الخالق، الشرك الخفي أن ترى أن هذا المبلغ الضخم الذي سيأتيك من غش المسلمين هو أكبر عندك من الله، فقد أشركته مع الله، وعبدت هذا المال، وجعلت المال إلهك، هذا هو الشرك الخفي، وهو خطير جداً.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الشرك الخفي أن ترى مع الله أحداً، أن تحب مع الله.

لكن التوحيد ؛ أن تحب في الله، والفرق كبير بين أن تحب مع الله وأن تحب في الله، أن تحب مع الله هذا عين الشرك، أما أن تحب في الله فهو عين التوحيد، فلذلك الآية دقيقة جداً:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠))

(سورة الكهف)

بشرى سارة للموحِّدين:

هناك بشارة من النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ

بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ:

((يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ فَقَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

السؤال الثاني:

((ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[متفق عليه]

أنشأ الله على ذاته حقاً عليه، لذلك:

الذين قالوا:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١))

(سورة التوبة)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا)

(وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية: ٣٠)

قال:

((حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

أنت في مأمن من عذاب الله:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ (٣٣))

(سورة الأنفال)

مادامت سنتك مطبقة في حياتهم ما كان الله ليعذبهم.

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة: ١٨)

بماذا ردّ الله عليهم ؟ قال:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: ١٨)

لذلك استنبط الإمام الشافعي أن الله لا يعذب أحبابهم، فما قولك أيها الشاب وأنت في مقتبل حياتك ؟ الحديث الصحيح الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أنك إذا عبدت الله، ولم تشرك به شيئاً فحقك عليه ألا يعذبك في الدنيا، وهذه نعمة كبيرة، هذا الحديث يملأ القلب طمأنينة وثقة وراحة.

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣))

(سورة طه)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (٢١- ٢١) : قانون الهجرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١١-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

قانون الهجرة:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس السنن الإلهية في القرآن الكريم، والقانون اليوم هو قانون الهجرة.

١ ـ آية قرآنية أصلٌ في موضوع الهجرة:

هذا القانون إن صح التعبير الأصل فيه هذه الآيةُ، قال تعالى:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠))

(سورة النساء)

٢ ـ الهجرة انتقال وحركة:

أيها الإخوة الكرام، النقطة الدقيقة أن الهجرة انتقال من مكان إلى مكان، والبشر جميعاً في شتى بقاع الأرض، وفي شتى العصور ينتقلون، فإن تنقلت من مكان إلى مكان فأنت مهاجر، ولكن الآية الكريمة قيدت الهجرة في سبيل الله، لأن الهجرة قد تكون في سبيل الدنيا، أو في سبيل الشيطان، فإن كانت من أجل الأموال كي تنفق في المباحات فهي في سبيل الدنيا، وإن كانت من أجل المعاصي والآثام فهي في سبيل الشيطان، فالانتقال يكون عبادة من أرقى العبادات، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((... وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا))

[مسلم]

٣ ـ لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن...:

لكن لئلا يتوهم إنسان أن الصحابة الكرام الذين تألقوا وارتقوا عند الله، وبلغوا أعلى مرتبة بهجرتهم، فباب الهجرة بين مكة والمدينة أغلق بعد فتح مكة، تذهب إلى العمرة، وتركب النقل العام من مكة إلى المدينة، وتسمي نفسك مهاجرا، هذه انتهت، لكن باب الهجرة مفتوح بين كل مدينتين،

في أي مكان في العالم يشبهان مكة والمدينة، أي أن المكان الذي لا تستطيع أن تعبد الله فيه ينبغي أن تتركه، ما الدليل ؟ قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ (٩٧))

(سورة النساء)

٤ – لابد من الهجرة من بلاد تُمنع فيها عبادة الله:

إذا مُنعنا من أن نمارس الشعائر الإسلامية، مُنعنا من أن نصلي، مُنعنا أن نحجب فتياتنا، مُنعنا أن نفعل كذا وكذا، أو كنا في بلاد فيها تشديدات تفوق حد الخيال على أي شعيرة دينية، فإذا دخل إنسان إلى المسجد مرة واحدة لا بد من أن يساءل أمنياً.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ (٩٧))

(سورة النساء)

من معاني الاستضعاف في الأرض:

المعنى الأول:

وقد وقف بعض العلماء عند كلمة (مستضعفين)، قد تكون ضعيفاً، ولا تستطيع أن تؤدي العبادات، والبلد الذي يرفع شعار (لا إله)، وهو في المعسكر الشرقي السابق، البلد مبدأه (لا إله)، إذاً: لا مسجد، ولا كنيسة، ولا معبد، ولا صلاة، ولا أي شيء يمتّ إلى الدين بصلة، فإذا كنت مستضعفاً في بلد قمعي يكافح أي اتجاه ديني، ولأنك مخلوق لعبادة الله، ولأن علة وجودك أن تعبده فلابد أن تهاجر منه.

مثلاً: لو أنك طالب فقير، وذهبت إلى بلد غربي من أجل أن تأخذ الدكتوراه، ولا أمل لك في الحياة إلا بهذه الدكتوراه، وأنت مستعد أن تعمل في الحراسة، وفي المطعم، وفي أصعب الحِرَف مقابل، أن تنتسب إلى الجامعة كي تنال الدكتوراه، فإذا لم تُقبَل في الجامعة هل هناك من معنى لبقائك في هذا البلد ؟ إن علة وجودك أن تلتحق بالجامعة، فإذا مُنعتَ فلا وجه لبقائك في هذا البلد، يقاس عليه أن علة وجودك في الدنيا أن تعبد الله، فإذا مُنعتَ أن تعبد الله فيوم القيامة سوف تحاسب أشد الحساب إن لم تهاجر إلى بلد تعبد الله فيه.

(فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ (٩٧))

(سورة النساء)

ماذا كان الرد الإلهي ؟

(قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧))

(سورة النساء)

في بعض البلاد لا تستطيع أن تربي أولادك على منهج الله، الحياة إغراءاتها أقوى من أية دعوة إسلامية، المعاصي الكبيرة فيها، والفحشاء كشربة الماء، لذلك حينما تكون في بلد الدخل فيه وفير، والبلاد جميلة، والإنسان يتمتع بحريات مذهلة، وأي شيء خطر في بالك يكون أمامك باتصال هاتفي، لكن لا تستطيع أن ترعى أولادك، ولا أن تربيهم تربية صحيحة، إذاً: أنت ممن ينطبق عليهم هذا الحُكمُ القرآني.

شاهد أب مع ابنته شابا في سريرها، كونه مسلما فيه بقية حمية، وبقية مروءة، وبقية غيرة رفع صوته، فلما رفع صوته اشتكت ابنته عليه، وسيق إلى المركز، وكتب تعهدا بألاّ يلجأ ثانية لرفع الصوت، لأن هذا الذي معها في الغرفة ضيفها، وجاء بدعوة منها.

الحديث طويل بهذا المعنى، فلذلك حينما تكون في بلد لا تستطيع أن تعبد الله فيه فالآية تقول:

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧))

(سورة النساء)

المعنى الثاني:

بعضهم قال: كلمة (مستضعفين) لا تعني أننا مقموعون فقط، فقد تكون في بلد فيه حرية، لكن الشهوات فيه مستعرة، والفتن يقظة، وأكبر معصية تتم في الشارع وفي حديقة أمام الناس، بلا حرج وبلا خوف وبلا حياء، فمثل هذه الأماكن ربما لا يستطيع الإنسان أن يضبط نفسه فيها، فلذلك طوبى لمن وسعته السنة، ولم تستهوه البدعة.

الموازنة بمعيار الآخرة لا بمعيار الدنيا:

أنا أقول دائماً للإخوة الكرام المقيمين في بلاد الغرب: لا توازن بين بلد مستقر اقتصادياً من مئتي سنة، كل شيء مؤمن، وحريات الإنسان بأعلى درجة، بلاد جميلة جداً، وأنيقة جداً، والخدمات عالية جداً، والحقوق مصونة جداً، وبين بلد نامٍ يعاني ما يعاني، وازن بين الدنيا والآخرة، لأن الإنسان وكنت أقول هذا في تلك البلاد:لو بلغت منصباً في كالرئيس كلينتون، وثروة كثروة أوناسيس، وعلماً كعلم إينشتاين، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس.

إن أكبر مشكلة يعاني منها من عاش في بلاد الغرب أولاده، وقد قال لي إنسان مقيم في سيدني: ابني كاد يسحقني، كلما قلت له: يا بني هذا حرام، يقول لي: لماذا حرام ؟ هذا عيب، لماذا عيب ؟ في مثل هذه البلاد مصير الإنسان في هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧))

(سورة النساء)

٥ – لابد أن تكون الهجرةُ في سبيل الله:

الحركة حركة، فإما في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان، إما من أجل الدنيا أو من أجل الآخرة، ولحكمة بالغة جعلت بعض البلاد التي يمكن أن تكون أقدر على تربية أولادك فيها من بلاد أخرى فيها متاعب كثيرة، كما أن الحلال جعله الله صعباً، والحرام سهلاً، لو كان العكس لأقبل الله على الحلال لا حباً في الله، ولا طاعة له، ولا رغبة في الآخرة، ولكن لأنه أسهل.

أيها الإخوة الكرام، الآية الأولى:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١٠٠))

(سورة النساء)

ما دفعه على الهجرة إلا الحفاظ على دينه، وعلى دين أولاده، ودين أهله، ومستقبل أولاده، والفتنة أشد من القتل.

تربية الأولاد في بلاد الغرب وأدٌ لهم:

ماذا كان يفعل العرب في الجاهلية ؟ كانوا يَئِدون بناتهم، بنت كالوردة تحفر لها حفرة، وتوضع في الحفرة، ويهال عليها الرمل، وهي تنادي: يا أبت، يا أبت، حتى إن الله عز وجل قال:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩))

(سورة التكوير)

هذه البنت قُتلت، أما لو أن إنساناً ربى ابنته على التفلت، ترتدي ثيابا فاضحة، تبرز هذه الثياب كل مفاتنها، تلتقي مع من تشاء من الشباب، تسهر مع من تشاء، وقد تدخل إلى أي بيت دون قيد أو شرط، وقد تقع في الفاحشة، وهذه البنت فُتنت بالفواحش والآثام، يوم القيامة أيهما أشد عذاباً تلك التي وئدت وهي صغيرة أم التي فتنت وهي كبيرة ؟ الجواب في القرآن الكريم:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (١٩١))

(سورة البقرة)

فلذلك أيها الإخوة، بقاء المسلم في بلد المسلمين يجعل عنده ضمانات، لا أقول: ليس هناك أخطار، بل إنّ العولمة جعلت العالم كله بلدة واحدة، و الأخطاء بأي بلد انتقلت إلينا.

لكن من باب التحفظ أقول: قدرتك على تربية أولادك في بلاد المسلمين أكبر من قدرتك على تربيتهم في بلاد أخرى، الابن له عمه وخاله وأقرباءه، وهناك جامع فيه خطبة، وعلاقات إسلامية، وبقية مروءة، وبقية حياء، وبقية خجل، وبقية تستر، والبيئة أقرب إلى الدين من هناك، لكن مع التواصل الثقافي والإعلاني وثورة المعلومات الفساد منتشرا في شتى بقاع الأرض.

وعدٌ إلهيٌّ على شكل قانون:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً (١٠٠))

(سورة النساء)

هذا وعد إلهي وقانون، لمجرد أنك هاجرت في سبيل الله.

حدثني أخ من تركيا قال لي: هربنا من الحكم التركي في عهد أتاتورك الذي أراد أن يلغي الإسلام كلياً، هربنا مشياً على الأقدام إلى الشام، أقسم لي بالله عنده خمسة وثلاثون بيتا في الشام.

(يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً (١٠٠))

(سورة النساء)

يجد سعة يرغم بها أنف مَن لامه على السفر.

بلاد الإسلام الفقيرة خيرٌ من بلاد الكفر الغنية:

إن كثيرا من أبطال يكونون في أوج نجاحهم في الغرب، بأمريكا بأوربا، كبر أولادهم وبناتهم، لكن حرصه على أولاده كبير، فينهي علاقاته، ويصفي أعماله، ويبيع ممتلكاته، ويأتي إلى بلده حتى يعاني ما يعاني منه، لكن له أجر كبير، وهناك فترة حرجة من سنة إلى سنتين ينتقل نقلة مزعجة جداً من مكان مريح إلى مكان فيه متاعب كثيرة، لكن الله طمأنك فقال:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ (٢٨))

(سورة التوبة)

هناك فترة حرجة لما يأتي المهاجر فيجد الأمور صعبة، البيت صعب تأمينُه، وأسعاره غالية، والقوانين معقدة، وفيها تعقيدات وروتين.

ذهب أحدهم إلى بلد غربي أحب أن ينشئ معملا، قال لي: والله صعقت، طولب بوثيقتين فقط، تصريحين، أول تصريح أن يوفر بعض فرص العمل، والتصريح الثاني أن يتعهد بعدم تلويث

البيئة، وأعطوه أرضا، كلُّ دُنُمٍ أُجرتُه في السنة مارك واحد، اطلب خمسين دنما بأجرةِ خمسين مَارْكًا في السنة.

هناك بلاد نامية يمكن أن لا يرى الرخصة قبل أن يموت، هناك صعوبات إدارية، وعقبات توضع، وهناك أناس لهم مصالح في العقبات.

أنا أقول لإخواننا الكرام: لا توازن بين بلد غربي متقدم ينعم بالمن مئتين سنة ومستقر استقرار دقيق وبين بلد نامٍ.

صدقوا أيها الإخوة، ولا أبالغ، أنك حينما تأتي إلى الشام، وتقبّل أرض هذا البلد، مع أن فيه متاعب لا تعد ولا تحصى، فإنك لا تعرف قيمة هذا البلد إلا إذا تركته، هنا في روحانية، وجوامع ممتلئة، وأذان، وعندنا كلمة (عيب)، وكلمة (لا يجوز)، كلمات فيها رحمة، فترى الواحد منا مؤمنا، له طموحات أن يهدي مَن حوله، له طموحات أن يقرأ كتابا، أن يتقرب إلى الله، أن يصلي قيام الليل، حتى يصل إلى الجنة.

والله يا أيها الإخوة الكرام، لا تظنوا أن المسلمين هناك سعداء، لا والله، إنهم يعيشون في ملل، وفي ضجر، مع أن المادة متوفرة بشكل يفوق حد الخيال، ولحكمة بالغة الله جعلنا في بلد إسلامي، وأقول لك بصراحة: فينا بقية حياء، وبقية مروءة ووفاء، ومحبة، ورحمة، وماديا عندنا شيء بسيط، ومع ذلك نسعد به.

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ (١٠٠))

(سورة النساء)

هناك شاب في أمريكا سمع دروسي، لكنه سمع كمية كبيرة من الدروس، فكر، وقال: هذه الدروس تعني أن أعود إلى الشام، وكان في أوج نجاحه، استقال من عمله، وباع أثاث بيته، بيته بالأجرة، وجمع أمواله، وجاء إلى الشام، في رابع يوم مات بحادث، فوقع أجره على الله، هذا اليوم يوم ؛ وفاته قد يكون هناك أو هنا، ولما كان هنا أراد أن ينجو بدينه من هذه البلاد.

حدثني طبيب أيضاً سمع دروسي بأمريكا قال: دروسك ملخصها: أن أعود إلى الشام، جاء إلى الشام، وفتح عيادة، كأنك في أمريكا، عيادات بأحدث الأجهزة، بعدما تمت، وعلى وشك أن يفتحها زارني في البيت، وقال: أنا بحسب دروسك فهمت أنه لا بد من أن أعود إلى بلدي، أنا عدت، وهذه بطاقة العيادة، وافتتاحها بعد يومين، وأتمنى أن تكون معي، وكنت معه، حدثني بعد فترة قال: أنا أحكّم المريض المسلم فأشعر بوفاء لهذا البلد، لأن لحَ كتفي من خير هذه البلد، فهل من المعقول أن يكون علمي لغير أبناء هذا البلد ؟! قال: أشعر براحة كبيرة وأنا أعالج أناسا بحاجة إلى علمي.

في ولاية واحدة في أمريكا خمسة آلاف طبيب سوري معهم بورد، وفي ألمانيا ثلاثة وسبعمئة، في برلين فقط معهم بورد، لما يأتي الطبيب ليقيم في الشام تكون أمريكا انتقلت إلى الشام، لأنه ذو علم، وأقلّ عملية تكلفة هناك تحتاج إلى مليوني ليرة سورية أو ثلاثة، فكأن هذا المواطن وصل إلى أعلى درجة من العلم دون أن يسافر.

إذا لم تؤمن بالآخرة فافعل ما تشاء هناك، وإذا آمنتَ بالآخرة فهنا أفضل لك، هذا هو المقياس الصحيح، وقد ترى بعضهم ممن تضعف صلتُه ببلده، ثم ينتقد أمته، ثم يحقد عليها، ثم يصل إلى الدين، يقول: ليس معقولا أن في هذا الزمان !!!

أنا أصف لكم التفلت هناك، لذلك اشكروا الله عز وجل لأنه خلقنا في هذه البلاد.

((بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ احْتُمِلَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَذْهُوبٌ بِهِ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي، فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلَا وَإِنَّ الْإِيمَانَ حِينَ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ))

[أحمد]

هي خير بلاد المسلمين للمسلمين يومئذ، ما من جامع فيما حول سورية يتواجد فيه هذا العدد، وقد سافرت كثيرا إلى بلاد الغرب يأتي الناس إلى المسجد بصعوبة، هنا إقبال على الدين، والله في رمضان عندنا عرس في الشام فلذلك الدنيا تنتهي.

مرة كنت أمشي في منطقة في أمريكا اسمها ديترويت، وهي بلاد جميلة جداً، رأيت مقبرة، فأنا قلت: هل تموتون أنتم ؟ قالوا: طبعاً، قلت: إذًا أنتم مثلنا، نحن نموت أيضاً، ما دام هناك موت انتهى الأمر، الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقر الفقير، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وذكاء الذكي، فإذا مات الإنسان مؤمنا فقد كسب الأبد، وربح الآخرة، ربح الجنة، وإذا مات على المعصية، ولا سيما في بلاد غير المسلمين فقد خسر الآخرة:

(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١))

(سورة الحج)

الهجرة بابها مفتوح بين كل مدينتين يشبهان مكة والمدينة بالضبط.

الهجرة في سبيل الله لها مقام عظيم عند الله:

أيها الإخوة الكرام، عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ جِئْتُهُ:

((مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ))

[الترمذي]

المهاجر له مقام في الدين، وأحيانا تكون مصالحك في هذا البلد، ويقتضي دينك أن تغادره إلى بلد آخر، فكأنك اقتلعت من جذورك.

الإنسان الساكن في الشام، له بيت، ومعارف، وأي شيء يأتيه بالهاتف، وأي مبلغ يأتيه قرضا، انتزع من بيته، وألقي في شارع من شوارع مدينة بإفريقية، ما معه ثمن طعام، الهجرة ليست سهلة، الهجرة اقتلاع من الجذور.

النبي عليه الصلاة والسلام لما جاء أحد الصحابة وصف له مكة في الربيع فبكى النبي، اشتاق إليها، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت.

محبة البلد شيء طبيعي في الإنسان، لكن الدين أغلى، وعلة وجودك أن تعبد الله، فأيّ مكان حال بينك وبين أن تعبده يجب أن تغادره، وأيّ مكان وأيّ زمان حال بينك وبين أن تعبد الله فينبغي أن تغادر هذا البلد.

أيها الإخوة الكرام، الهجرة في سبيل الرحمن ممتعة ومسعدة.

الله عزوجل جعل للهجرة هذا القانون:

(يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً (١٠٠))

(سورة النساء)

لكن الهجرة في سبيل الشيطان فيها خسارة في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس